

"طريق الحج بسطنة سنار من خلال رحلة جيمس بروس لاستكشاف منابع النيل" (١٧٦٨ - ١٧٧٣ م)

د. محمود محارب أمين^١

المُلخَص

كَانَ عَمَلُ جِيمِسْ بَرُوسِ Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772 and 1773. الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ عَامَ ١٧٩٠م فِي خَمْسَةِ مَجَلَّدَاتٍ كَبِيرَةٍ، وَأُعِيدَ طَبْعُهُ فِي بَدَايَةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، مَعْنِيًا بِالْأَسَاسِ بِمَنَابِعِ النِّيلِ، وَالْهَضْبَةِ الْحَبَشِيَّةِ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ ضَمَّ فُصُولًا عَنْ مَرَاكِزِ عَرَبِيَّةٍ إِسْلَامِيَّةٍ وَأَقَعَةَ عَلَى طُرُقِ الْحَجِّ فِي أُفْرِيْقِيَا مِثْلَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَالْقَاهِرَةِ، وَقَنَا، وَأَسْوَانَ، وَالْقَصِيرِ، وَمِصْوَعِ، وَسَوَاكِنِ، وَعَيْذَابِ، وَسِنَارِ، وَسَاعَدَهُ فِي تَتَاوُلِ هَذِهِ الطُّرُقِ بِدَقَّةٍ كَبِيرَةٍ تَحْصِيلُهُ قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ الْعُلُومِ الْمُسَاعَدَةِ مِثْلَ الْفَلَكِ، وَالطَّبِّ، وَاللُّغَتَيْنِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْجَعِزِيَّةِ. كَمَا احْتَوَى الْعَمَلُ عَلَى إِشَارَاتٍ لِقَائَةِ لِلْأَوْضَاعِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ، وَالْاِجْتِمَاعِيَّةِ، وَالنَّقَافِيَّةِ فِي الْمَرَاكِزِ الْوَاقِعَةِ عَلَى طُرُقِ الْحَجِّ، أَوْ مُؤَدِيَةِ إِلَيْهَا؛ إِضَافَةً إِلَى مَا أَشَارَ لَهُ الْعَمَلُ عَنْ وُجُودِ اِقْتِصَادِ اِجْنَبِيٍّ قَوِيٍّ (إِنْجِلِيزِيٍّ- فَرَنْسِيٍّ) عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ فِي هَذِهِ الْمَرَاكِزِ.

وَتَهْدَفُ الدِّرَاسَةُ إِلَى تَتَبُعِ تَتَاوُلِ جِيمِسْ بَرُوسِ لِأَهَمِّ الْمَحَطَّاتِ الْوَاقِعَةِ عَلَى طُرُقِ الْحَجِّ خِلَالَ رِحْلَتِهِ، وَكَذَلِكَ رِصْدِ بَرُوسِ لَطَّرِيقِ الْحَجِّ، وَالْأَحْوَالِ السِّيَاسِيَّةِ، وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ، وَالتَّجَارِيَّةِ فِي سَطْنَةِ سِنَارِ، وَتَبْيِينِ التَّفَاعُلَاتِ الْحَادِثَةِ فِيهَا مِنْ خِلَالِ عَمَلِهِ الْكَبِيرِ، الَّذِي يَحْمِلُ أَوْجُهَ نَقْدٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَيَسْتَحِقُّ دِرَاسَاتٍ عَدِيدَةً، بِحُكْمِ كَوْنِهِ مَصْدَرًا تَارِيخِيًّا مُهِمًّا يُعْبَرُ عَنْ رُوحِ الْعَصْرِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ (الرُّبْعِ الْآخِرِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ) وَكَذَلِكَ رُؤْيِيَّتِهِ لِتَفْسِيرِ تَارِيخِ اِلسْتِعْمَارِ الْاُورُوبِيِّ بِالْمَنْطِقَةِ خَاصَّةً عِنْدَمَا نَأْخُذُ فِي اِعْتِبَارِنَا أَنَّهُ تَوَلَّى فِي عَمَلِهِ هَذَا تَدْوِينَ الْمَاحِظَاتِ الْعَامَّةِ، وَتَارِيخِيَّةِ الطَّابِعِ، فِي حِينِ تَوَلَّى مُسَاعَدَةَ رَسَامِ الْخَرَائِطِ الْإِيطَالِيِّ لُوجِي بَالُوجَانِي Luigi Balugani الْمَدَاخِلِ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْجُغْرَافِيَا، وَالْمَنَاخِ، وَبَقِيَّةِ الظَّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ.

^١ مَدْرَسُ التَّارِيخِ الْحَدِيثِ وَالْمُعَاوِرِ كَلِّيَّةِ الْآدَابِ جَامِعَةِ الْوَادِي الْجَدِيدِ

Abstract

James Bruce's work was *Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772 and 1773*. It was issued at the end of the eighteenth century in the year 1790 AD in five large volumes, and it was reprinted at the beginning of the nineteenth century, mainly concerned with the sources of The Nile and the Abyssinian plateau, and despite that, it included chapters on Arab Islamic centers located on the pilgrimage routes in Africa, such as Alexandria, Cairo, Qena, Aswan, Al-Qusayr, Massawa, Suakin, Aidab, and Sennar, and dealt with the several communities alongside these mentioned roads with great accuracy. The main factor that helped him in doing was the fact that he have acquired already a great deal of knowledge of auxiliary sciences such as astronomy, medicine, and the Arabic and Gees language. The work also contained remarkable references to the economic, social and cultural conditions in the centers located on the Hajj routes or leading to them, in addition to what the work indicated about as strong foreign economic presence (English-French) in particular in these centers.

The study aims to track James Bruce's handling of the most important stations on the pilgrimage routes in Africa, especially the pilgrimage routes, and the political, economic and commercial conditions in the Sultanate of Sennar, and to show the interactions taking place in it through his great work, which carries multiple aspects of criticism and deserves many studies, by virtue of being an important historical source that expresses the spirit of the era. At that time (the last quarter of the eighteenth century) as well as a vision to interpret the history of European colonialism in the region, especially when we take into account that the author's tendency to took extensive general and historical notes, while his assistant, the Italian cartographer Luigi Balugani, took over the entries related to geography, climate and other natural phenomena.

مقدمة

كَانَ عَمَلُ جِيمِسَ بَرُوسَ *Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772 and 1773*. الْقَرْنِ الثَّامِنَ عَشَرَ عَامَ ١٧٩٠م فِي خَمْسَةِ مُجَلَّدَاتٍ كَبِيرَةٍ، وَأُعِيدَ طَبْعُهُ فِي بَدَايَةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، مَعْنِيًا بِالْأَسَاسِ بِمَنَابِعِ النَّيْلِ، وَالْهَضْبَةِ الْحَبَشِيَّةِ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ ضَمَّ فُصُولًا عَنْ مَرَاكِزِ عَرَبِيَّةٍ إِسْلَامِيَّةٍ وَأَقْعَةٍ عَلَى طُرُقِ الْحَجِّ فِي أُفْرِيْقِيَا مِثْلَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، وَالْقَاهِرَةِ، وَقَنَا، وَأَسْوَانَ، وَالْقُصَيْرِ، وَمُصَوِّعٍ، وَسَوَاكِنَ، وَعَيْذَابَ، وَسِنَارَ، وَسَاعَدَهُ فِي تَتَاوُلِ هَذِهِ الطَّرِيقِ بِدَقَّةٍ كَبِيرَةٍ تَحْصِيلُهُ قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ الْعُلُومِ الْمُسَاعَدَةِ مِثْلَ

الفلك، والطب، واللغتين العربية والعزبية. كما احتوى العمل على إشارات لافتة للأوضاع الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية في المراكز الواقعة على طرق الحج، أو مؤدية إليها؛ إضافة إلى ما أشار له العمل عن وجود اقتصاد أجنبي قوي (إنجليزي- فرنسي) على وجه الخصوص في هذه المراكز.

وتهدف الدراسة إلى تتبع تناول جيمس بروس لأهم المحطات الواقعة على طرق الحج خلال رحلته، وكذلك رصد بروس لطريق الحج، والأحوال السياسية، والاقتصادية، والتجارية في سلطنة سنار، وتبيين التفاعلات الحادثة فيها من خلال عمله الكبير؛ الذي يحمل أوجه نقد متعددة، ويستحق دراسات كثيرة، بحكم كونه مصدراً تاريخياً مهماً يعبر عن روح العصر في ذلك الوقت (الربع الأخير من القرن الثامن عشر) وقد تمكنت من الوصول إليه كاملاً، واتضح رؤيته لتفسير تأريخ الاستعمار الأوروبي بالمنطقة خاصة عندما نأخذ في اعتبارنا أنه تولى في عمله هذا تدوين الملاحظات العامة، وتاريخية الطابع، في حين تولى مساعده رسام الخرائط الإيطالي لويجي بالوجاني Luigi Balugani المداخل المتعلقة بالجغرافيا، والمناخ، وبقية الظواهر الطبيعية.

أولاً- أهم المحطات الواقعة على طرق الحج في رحلة بروس:

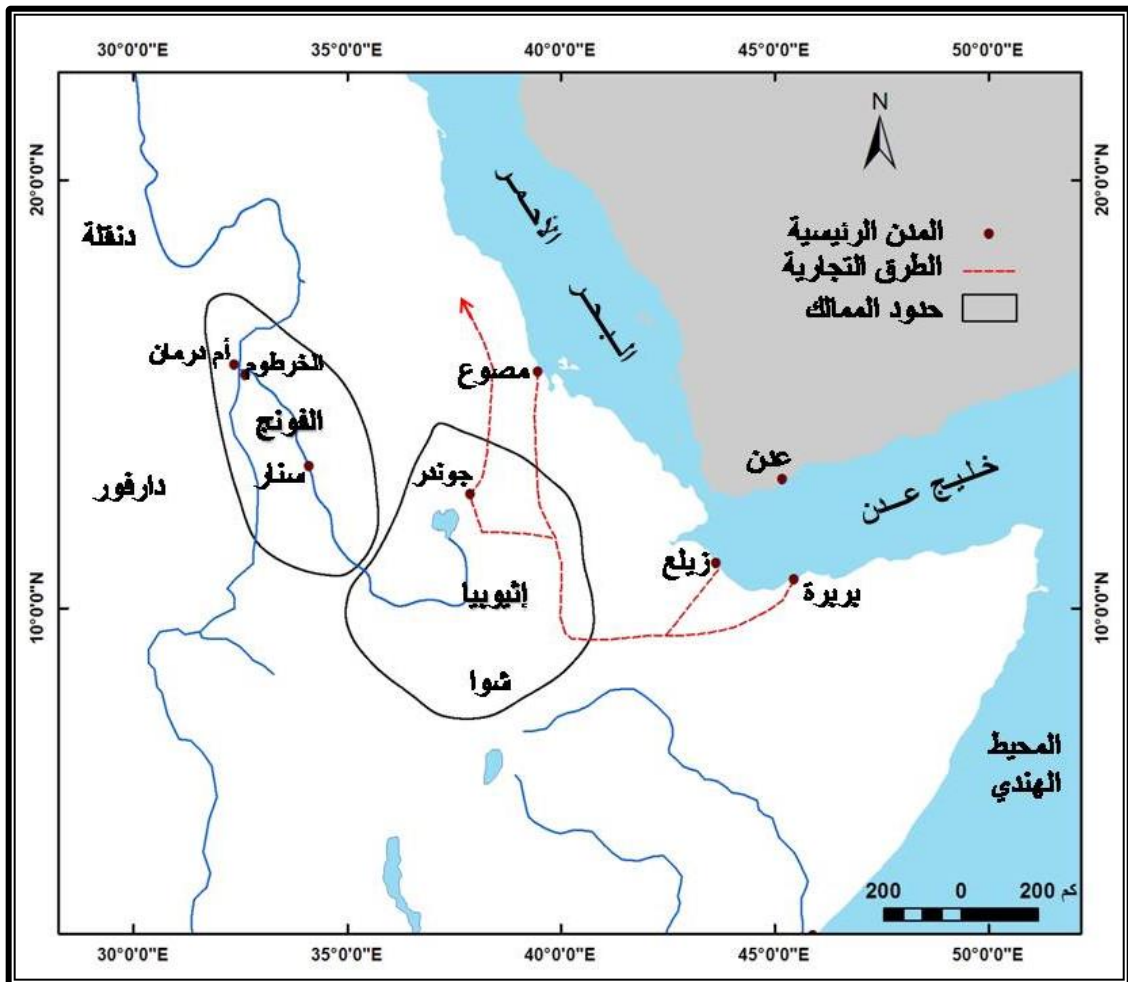
في خطاب من جيمس بروس^(١) James Bruce مؤرخ في ١٩ أكتوبر عام ١٧٥٨م (عندما كان يبلغ ٢٧ عاماً) اتضح أنه يرث ثروة طائلة من زوجته بابتنة شريك كبير في أحد الشركات، حيث توفيت في باريس في غضون عام من زواجهما. وزار بروس بعدها إسبانيا والبرتغال لمدة ستة أشهر بغرض العمل في الغالب، ثم فرنسا وهولندا لمدة ستة أشهر أخرى، ووجد في ترحاله ما يكفي لأن ينهي حياته به، وفي إسبانيا اطلع على المصادر الأدبية العربية، واطلع على الآداب الأثيوبية في هولندا، وخاصة عمل جوب لودولف Job Ludolf مؤسس الدراسات الأثيوبية في أوروبا، وعاد إلى لندن بوفاة والده، ولإدارة إرثه في كينيارد^(٢)، ودرس بروس بصفته قنصلاً بريطانياً في الجزائر منذ عام ١٧٦٣م كثيراً من الآثار القديمة بشمال أفريقيا، وسجل ما شاهده من آثارها، ورسوم كهوفها^(٣).

وقد قام بروس برحلات إلى إثيوبيا، ووصل إلى منبع النيل الأزرق، وظهرت مصداقية ملاحظاته التي نشرها في عمله المعروف تشكيكاً من قبل علماء في لندن،

غَيْرَ أَنَّ تَقَارِيرَ الرَّحَالَةِ الَّذِينَ أَعْقَبُوهُ أَكَّدَتْ دِقَّةَ رَصْدِهِ. وَبَدَأَ مِنْ عَامِ ١٧٦٥م سَافِرَ عِبْرَ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ، وَزَارَ سُورِيَا، وَوَصَلَ إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ فِي يُولْيُو ١٧٦٨م. وَغَادَرَ الْقَاهِرَةَ بِهَدَفِ الْوُصُولِ إِلَى مَنَبَعِ النَّيْلِ فِي رِحْلَةٍ شَاقَّةٍ بِمُحَاذَاةِ النَّيْلِ، وَوَصَلَ إِلَى أَسْوَانَ، وَالْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَمَصُوعَ فِي عَامِ ١٧٦٩م، ثُمَّ وَصَلَ الْعَاصِمَةَ الْإِثْيُوبِيَّةَ جُونَدَرَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي ١٤ فَبْرَايِرَ ١٧٧٠م، وَظَلَّ بِهَا مَدَّةَ عَامَيْنِ كَامِلَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْهَا إِلَى سِنَارِ الْقَرِيبَةِ فِي عَامِ ١٧٧٢م، وَكَانَتْ رِحْلَةُ بَرُوسَ حَتَّى نَيْلِكَ الْوَقْتِ مِنَ الرَّحَلَاتِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي قَامَ بِهَا رِحَالَةُ أُورُوبِيَّوْنَ لَجُونَدَرَ^(٤)، وَسَبَقَهُ مَبَاشَرَةَ الرَّحَالَةِ الْأَرْمَنِيِّ يُوَهَانزُ تُوْفَمَاشِينِ Yohannes T'ovmacean^(٥).

خَرِيْطَةٌ رَقْمٌ (١)

شَرْقُ أَفْرِيْقِيَا (مَمْلَكَتَا الْفُونْجِ وَإِثْيُوبِيَا): الطَّرِيقُ التِّجَارِيَّةُ وَحُدُودُ الْمَمَالِكِ^(٦)



ويفصلُ برُوسَ المَحَطَّاتِ الوَاقِعَةَ عَلَى طَرُقِ الْحَجِّ وَالتَّجَارَةِ، الَّتِي مَرَّ بِهَا وَصُولًا إِلَى جُونَدَرَ؛ فَقَدْ وَصَلَ إِلَى الْأِسْكَندَرِيَّةِ فِي ٢٠ يُونِيُو ١٧٦٨م، وَظَلَّ مُرَابِطًا أَمَامَ سَوَاحِلِهَا حَتَّى شَهْرِ يُولِيُو، حَيْثُ وَجَدَ الطَّاعُونَ ضَارِبًا فِي أَرْجَائِهَا، وَفِي الْمَنَاطِقِ الْمُجَاوِرَةِ لَهَا^(٧)، وَسَارَ إِلَى رَشِيدٍ بَرًّا؛ لِأَنَّ مَصَبَ نَهْرِ النَّيْلِ الْمُؤَدِّي إِلَى رَشِيدٍ، وَهُوَ الْبُوعَازُ، كَانَ ضَحْلًا لِلغَايَةِ، وَيَشْكَلُ الْمُرُورُ فِيهِ خُطُورَةً^(٨)، وَوَصَلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ فِي بَدَايَةِ يُولِيُو، وَذَهَبَ مُبَاشِرَةً إِلَى مَنْزِلِ جُولِيَانِ وَبَرْتِرَانِ Julien and Bertrand؛ حَيْثُ أَفْصَحَ لَهُمَا عَنْ نِيَّتِهِ الْقِيَامَ بِالرَّحْلَةِ إِلَى الْحَبْشَةِ، وَلَحَظَ فِي الْقَاهِرَةِ انْتِشَارَ الْيَهُودِ، وَالتُّرْكِ، وَالمَغَارِبَةِ، وَالأَقْبَاطِ، وَالفَرَنْجَةِ الْمُشَارِكِينَ فِي النِّشَاطِ التِّجَارِيِّ بِالمَدِينَةِ^(٩)

وَيَقِظُنُ الفَرَنْسِيُونَ فِي شَارِعٍ خَاصٍّ بِهِمْ فِي الْقَاهِرَةِ (شَارِعُ بُولَاقِ)، وَهُوَ شَارِعٌ مُزْدَهَرٌ، يَعْيشُ فِيهِ التُّجَّارُ الفَرَنْسِيُونَ جَمِيعًا، وَقَدْ أُغْلِقُ عِنْدَ أَحَدِ طَرَفَيْهِ بَبْوَابَةٌ كَبِيرَةٌ دَائِمًا فِي وَقْتِ انْتِشَارِ الطَّاعُونَ، وَعِنْدَ الطَّرْفِ الأَخْرِ تُوْجَدُ حَديقَةٌ كَبِيرَةٌ^(١٠). أَمَّا كَارِلُو رُوزِيَتِي Carlo Rosetti، الَّذِي تَعَرَّفَ عَلَيْهِ بُرُوسُ، وَكَانَ وَسِيلَتَهُ لِلتَّقَرُّبِ لِعَلِيِّ بِكِ حَاكِمِ مِصْرَ حِينَئِذٍ؛ فَقَدْ كَانَ شَابًا لَدِيهِ مَقْدَرَةٌ كَبِيرَةٌ فَرَضَ سَيِّطْرَتَهُ التَّامَّةَ عَلَى البِكِ لَعَدَّةِ سَنَوَاتٍ^(١١). وَسَعَى بُرُوسُ لِلْحُصُولِ عَلَى خُطَابَاتِ تَوْصِيَّةٍ لِحَاكِمِ أَسْوَانَ، وَإِيرِيمِ، وَالدَّرِّ فِي صَعِيدِ مِصْرَ، وَخُطَابَاتِ تَوْصِيَّةٍ مِنْ عَلِيِّ بِكِ لِلبِكِ السُّوَيْسِ، وَشَرِيفِ مَكَّةَ، وَنَائِبِ مُصَوِّعَ، وَمَلِكِ سِنَارِ، وَوَزِيرِهِ حِينَئِذٍ^(١٢).

وَسَرَّعَانَ أَنْ أَبْحَرَ فِي النَّيْلِ مِنَ الْقَاهِرَةِ وَصُولًا إِلَى أَسْيُوطَ مَعَ أَحَدِ الشُّيُوخِ المِصْرِيِّينَ، وَبِخُطَابِ مِنْ عَلِيِّ بِكِ، ثُمَّ ارْتَحَلَ بَعْدَهَا إِلَى أَسْوَانَ؛ حَيْثُ عَلَّقَ بِهَا بَعْضَ الوَقْتِ نَتِيجَةَ إِصَابَتِهِ بِمَرَضٍ فِي العَيْنِ، وَرَحَلَ إِلَى القُصَيْرِ؛ حَيْثُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ إِلَى سِينَاءَ. وَبَعْدَئِذٍ أَبْحَرَ عَلَى امْتِدَادِ سَاحِلِ البَحْرِ الأَحْمَرِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ. ثُمَّ زَارَ كَثِيرًا مِنْ مَوَانِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ؛ حَيْثُ أَبْدَى اِهْتِمَامًا بِمَعْرِفَةِ طَرُقِ الطِّبِّ المَحَلِّيَّةِ، وَاشْتَرَى عَدَدًا مِنَ المَخْطُوطَاتِ العَرَبِيَّةِ حَوْلَ المَوْضُوعِ، وَفِي يَنْبَعِ مَنَحِهِ قَاضِي المَدِينَةِ عَيْنَةَ مِنْ "البَلْسَمِ" أَوْ التَّرِياقِ، وَزُجَاجَةً كَبِيرَةً مِنْهُ^(١٣). وَاسْتَقَلَّ عِنْدَ مُغَادَرَتِهِ لِشِبْهِ الْجَزِيرَةِ سَفِينَةً مُتَّجِهَةً إِلَى جَزْرِ دَهْلِكِ؛ حَيْثُ أَخْبَرَهُ أَهْلُهَا أَنَّهُ "لَيْسَتْ لَدَيْهِمْ أَمْرَاضٌ" إِلَّا فِي الرَّبِيعِ عِنْدَمَا تَأْتِي السُّفُنُ مِنَ اليَمَنِ، وَمِنْ جَدَّةَ. ثُمَّ أَبْحَرَ إِلَى مُصَوِّعَ، وَهِيَ جَزِيرَةٌ

قَبَالَةَ السَّاحِلِ الْأَفْرِيْقِيِّ مُبَاشَرَةً؛ حَيْثُ وَصَلَهَا فِي ١٩ سِبْتَمْبَرِ ١٧٦٩م، وَكَانَتْ الْمَدِينَةُ تُعَانِي مِنْ وَبَاءِ الْجُدْرِي؛ الَّذِي سَبَبَ وَفِيَّاتٍ كَبِيرَةً لِدَرَجَةِ أَنَّ الْأَهَالِيَّ بَدَؤُوا فِي الْفَاءِ الْجُنْثِ فِي الْبَحْرِ بَدَلًا مِنْ دَفْنِهَا. وَهَكَذَا عُلِقَ فِي مُصَوِّعٍ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ الْخُرُوجَ مِنْهَا مَدَّةَ شَهْرَيْنِ لِمَوَاصَلَةِ رِحْلَتِهِ سَرِيعًا، مِمَّا مَكَّنَهُ مِنْ وَصْفِ الْمَكَانِ وَصْفًا دَقِيقًا^(١٤).

وَمِنْ وَصْفِهِ لَهَا "تَرَابُضُ السُّفْنِ الرَّاسِيَةِ مِنْ مُصَوِّعٍ وَسَوَاكِنِ"^(١٥) الْمُنْتَجِهَةَ إِلَى جَدَّةَ وَقَتَ ذُرُوءِ الرِّيَّاحِ الْمَوْسِمِيَّةِ فِي الصَّيْفِ بِالْقُرْبِ مِنْ سَاحِلِ الْحَبْشَةِ، حَيْثُ تَوَاجَهَ رِيَّاحًا شَرْقِيَّةً خَفِيفَةً مُنْتَظِمَةً تَضْرِبُ السَّاحِلَ طَوَالَ اللَّيْلِ، وَرِيَّاحًا غَرْبِيَّةً خَالَ النَّهَارِ"^(١٦). وَكَانَ مِيْتِكَالُ أَغَا Metical Aga، وَهُوَ صَدِيقٌ عَظِيمٌ لِحَامِي الْإِنْجَلِيزِ فِي جَدَّةَ، وَكَانَ فِي الْأَصْلِ عَبْدًا حَبَشِيًّا، وَعَدَّهُ بَرُوسٌ أَهْلًا لِلنَّقَّةِ، وَأَدَارَ مَبِيعَاتِ الْمَلِكِ، وَخَاصَّةَ الْعَاجِ، وَكَثِيرًا مِنَ السَّلْعِ الثَّمِينَةِ مُقَابِلَ الْحُصُولِ عَلَى أَسْلِحَةٍ نَارِيَّةٍ^(١٧).

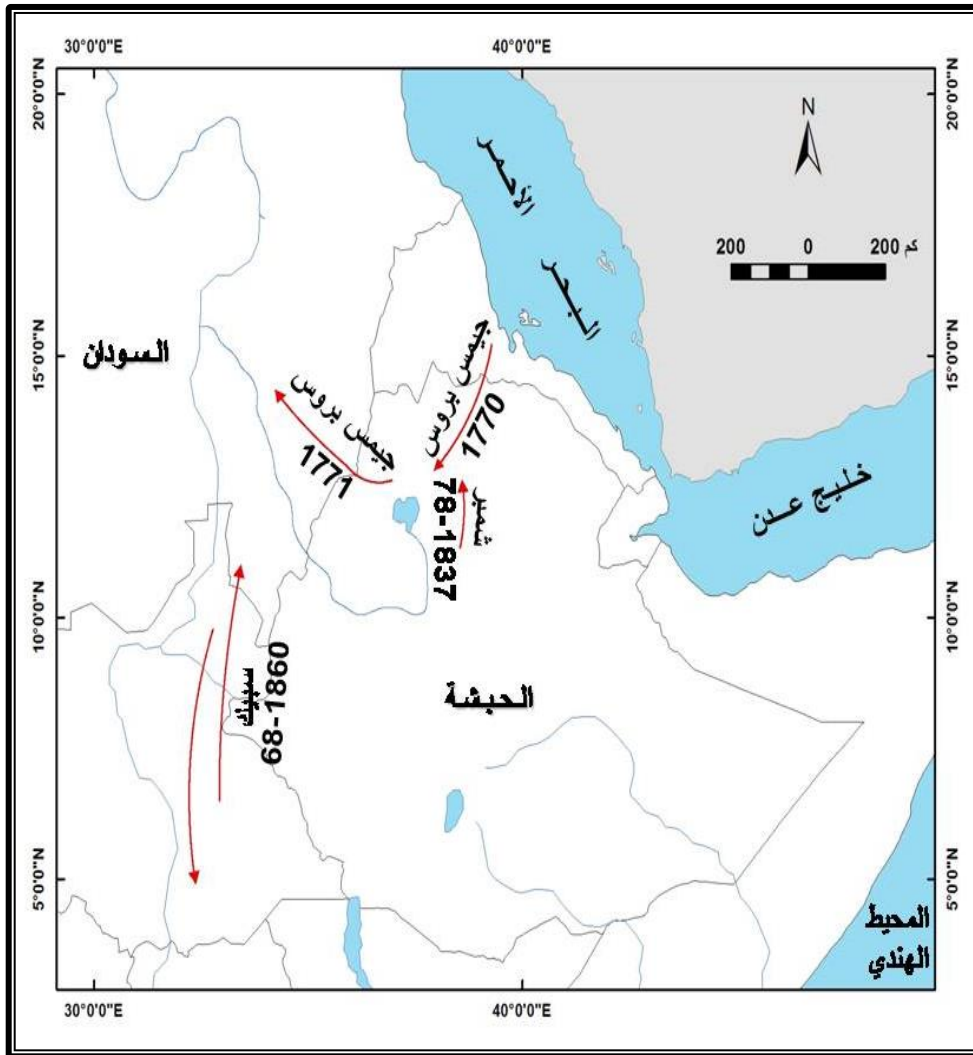
أَمَّا نَائِبُ مُصَوِّعِ التِّي كَانَتْ تَابِعَةً لِحُكُومَةِ بَاشَا جَدَّةَ آنَ ذَاكَ، فَكَانَ يَصُدِّدُ أَنْ يَنْأَى بِنَفْسِهِ عَنِ هَذَا التَّحَالْفِ، وَأَعَدَّ لِلْإِسْتِقْبَالِ عَنِ تَبَعِيَّةِ مُصَوِّعِ لَجَدَّةَ. وَتَوَقَّفَ عَنِ دَفْعِ الْجَزِيَّةِ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْبَاشَا (الَّذِي لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ قُوَّاتٌ كَافِيَّةٌ) إِجْبَارَهُ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ قَبَالَةَ السَّاحِلِ الْحَبَشِيِّ؛ بَآيَةً حَالٍ فَإِنَّ مِيْتِكَالُ أَغَا، وَالْبَاشَا اتَّفَقَا فِي النَّهَائَةِ، وَسَلَّمَ الْأَخِيرُ لِلأَوَّلِ الْجَزِيرَةَ، وَإِقْلِيمَ مُصَوِّعِ مُقَابِلَ مَبْلَغٍ يَتِمُّ دَفْعُهُ سَنَوِيًّا، وَعَيْنَ مِيْتِكَالُ أَغَا "مَإِكِل"، حَاكِمَ التَّجْرَائِي، مُحَصِّلًا لِاسْتِحْقَاقَاتِهِ، "وَدَعَمَ فِي النَّهَائَةِ رِحْلَتَهُ دَاخِلَ الْحَبْشَةِ ثُمَّ إِلَى سِنَارِ"^(١٨)

وَازْدَهَرَتْ تِجَارَةُ الْهِنْدِ بِشَكْلِ مُتَزَايِدٍ فِي سَوَاكِنِ وَمُصَوِّعٍ، كَمَا كَانَ عَلَيْهِ حَالُ اَزْدِهَارِهَا فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ. وَقَدْ مَنَعَ بَعْضُ التُّجَّارِ الْهِنُودِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْأَرَاضِي الْمَقْدَسَةِ بِالْحِجَازِ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّهُمْ اعْتَمَدُوا عَلَى الْيَمَنِ، وَسَوَاكِنِ، وَمُصَوِّعٍ فِي تَمْرِيرِ تِجَارَتِهِمْ إِلَى جَدَّةَ، مُقَابِلَ الْحُصُولِ عَلَى مُنْتَجَاتٍ مِثْلَ ذَهَبِ سِنَارِ الصَّافِي عِبْرَ الْحَبْشَةِ^(١٩). وَأَخَذَتْ التَّجَارَةُ مَرَّةً أُخْرَى مَسَارَهَا الْقَدِيمَ نَحْوَ جَدَّةَ. وَكَانَ شَرِيفُ مَكَّةَ، وَجَمِيعُ الْعَرَبِ مُهْتَمِّينَ بِرُجُوعِ هَذِهِ التَّجَارَةِ مَرَّةً أُخْرَى، وَنَجَحَتْ سِيَاسَتُهُمْ فِي جَذْبِ التَّجَارَةِ، وَأَصْبَحَ أَمْرَاءُ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ مُتَحَرِّرِينَ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ سَيِّطَرَةِ الْأَتْرَاكِ، وَعَادَتْ دَهْلُكَ وَمُصَوِّعُ وَسَوَاكِنُ لِسَادَتِهَا الْأَوَّالِ، وَلَمْ يَحْمِلُوا مِنَ التَّبَعِيَّةِ لِلدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ سِوَى الْأَقَابِ فَقَطْ^(٢٠).

وَإِذَا كَانَ الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ هُوَ الْمَعْبَرُ الَّذِي مَرَّتْ فِيهِ غَالِيَةً تِجَارَةٌ سِنَارَ بِالتَّطَابُقِ
مَعَ طَرِيقِ الْحَجِّ؛ فَإِنَّ تِجَارَةَ مِصْرَ مَعَ سِنَارَ كَانَتْ عَلَى الْقَدْرِ نَفْسِهِ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ
لَأَهْلِ سِنَارَ، وَكَانَتْ أَسْيُوطُ Siout مَقَرَّ الْقَوَائِلِ الْخَارِجَةِ إِلَى سِنَارَ^(٢١). وَكَمَا كَانَتْ قُرَى
بَنِي عَامِرٍ، وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْقُرَى مُكَوَّنَةٌ مِنْ أَكْوَاحِ قَبِيْرَةٍ، وَكَانَتْ تَضُمُّ فِي ذَلِكَ
الْوَقْتِ حِوَالِي أَلْفِ رَجُلٍ قَوِيٍّ، وَلَدِيهِمْ عَدَدٌ قَلِيْلٌ مِنَ الْخَيْلِ، وَاعْتَمَدُوا أَسَاسًا عَلَى
الْجِمَالِ، وَهُمْ أَصْدَقَاءُ الشَّيْخِ هَمَّامِ حَاكِمِ مِصْرَ الْعُلِيَّا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَبِالتَّبَعِيَّةِ لِلْحُكُومَةِ
التُّرْكِيَّةِ فِي أَسْوَانَ^(٢٢)، وَكَذَا أَهْلُ الدَّرِّ وَإِبْرِيمِ. الَّذِينَ كَانُوا بِمِثَابَةِ الْحَاجِزِ أَمَامَ الْأَعْدَادِ
الْكَبِيْرَةِ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْبِشَارِيَّةِ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَعْتمِدُونَ عَلَى مَمْلَكَةِ سِنَارَ^(٢٣).

خَرِيطَةٌ رَقْمُ (٢)

أَهْمُ رِحَلَاتِ الرَّحَالَةِ الْأُورُوبِيَّةِ فِي النِّيلِ وَشَرْقِ أُفْرِيْقِيَا^(٢٤)



وَدَعَى بُرُوسٌ عَلَى مَشَارِفِ سِنَارٍ أَنَّهُ يَحْمِلُ هَدَايَا مِنَ الذَّهَبِ، وَالْأَقْمِشَةَ الْمُطْرَزَةَ بِالذَّهَبِ مِنْ مَلِكِ الْحَبْشَةِ إِلَى مَلِكِ سِنَارٍ، وَهَدَايَا أُخْرَى لِلْعَامِلِينَ فِي الدَّوْلَةِ بِسِنَارٍ. كَمَا أَنَّهُ كَانَ يَتَوَدَّدُ لِأَهْلِهَا بِأَنَّهُ جَاءَ لِهَذِهِ الْبِلَادِ فِي حِمَايَةِ شَرِيفِ مَكَّةَ، وَوَزِيرِهِ مِيْتِكَالِ أَغَا Metical Aga وَأَنَّهُ جَاءَ لِسِنَارٍ كَيْ يَمُرَّ عِبْرَهَا إِلَى الْقَاهِرَةِ لِلانْضِمَامِ لِعَلِي بَيْكٍ بِوَصْفِهِ طَبِيبًا، وَمَذْكَرًا بِأَنَّ عَلِيَّ بَيْكٍ تَحْتَ يَدَيْهِ مَا لَا يَقْلُ عَنْ ثَلَاثَةِ آلَافِ إِنْسَانٍ مِنْ رَعَايَا سِنَارٍ. وَكَانَ حَدِيثُ بُرُوسَ هَذَا عَلَى بَعْدِ يَوْمَيْنِ مِنْ دُخُولِهِ سِنَارَ نَفْسَهَا، وَفِي تَيَاوَا Teawa (الْفَضَارِفِ وَهِيَ عَاصِمَةُ عَطْبَرَةَ) (٢٥).

ثَانِيًا- رِصْدُ بُرُوسِ لَطَرِيقِ الْحَجِّ وَالتَّجَارَةِ بِسُلْطَنَةِ سِنَارٍ:

خَصَّصَ جِيْمِسُ بُرُوسُ الْكِتَابَ الثَّامِنَ مِنْ عَمَلِهِ، وَالْمَنْشُورَ فِي الْمَجْلَدِ الرَّابِعِ طَبْعَةً أُدْنَبِرَةَ عَامَ ١٧٩٠م لِرِحْلَتِهِ مِنْ جُونْدَرِ عَاصِمَةِ الْحَبْشَةِ حِينَ ذَاكَ إِلَى سِنَارٍ، وَمِنْهَا إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَيَقَعُ هَذَا السَّفَرُ فِي ثَلَاثَةِ عَشْرَ فَصَلًا خُصِّصَتْ التَّسْعَةُ الْأُولَى مِنْهَا لِلرَّحْلَةِ مِنْ جُونْدَرِ إِلَى سِنَارٍ، ثُمَّ تَتَاوَلَ فِي الْفَصْلِ الْعَاشِرِ الرَّحْلَةَ مِنْ سِنَارٍ إِلَى شَنْدِي، وَاخْتَمَّتْهَا بِالْفَصْلِ الثَّلَاثِ عَشَرَ عِنْدَ وُصُولِهِ إِلَى الْقَاهِرَةِ، وَمُعَامَلَاتِهِ مَعَ الْبَيْكِ بِهَا، ثُمَّ وُصُولِهِ إِلَى مَرْسِيَلِيَا.

وَقَدْ انْتَقَلَ بُرُوسٌ مِنْ جُونْدَرِ إِلَى تَشْرِكِينَ Tcherkin الَّتِي بِهَا أَسْوَاقٌ تُعْقَدُ أَيَّامَ السَّبْتِ، وَوَأَصَلَ سَيْرُهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى تَيَاوَا حَامِلًا خَطَابًا مِنْ مِيْتِكَالِ أَغَا إِلَى بَعْضِ عَلِيَّةِ الْقَوْمِ فِي سِنَارٍ، وَانْتِظَارًا أَنْ يَتِمَّ إِرسَالُ أَحَدِ خَدَمِ الْمَلِكِ لَهُ لِتَأْمِينِ وُصُولِهِ مِنَ الْحُدُودِ إِلَى الْعَاصِمَةِ سِنَارٍ، وَهُوَ مَا يَدُلُّ عَلَى رُسُوخِ حُدُودِ الْمَمْلَكَةِ وَقُوَّةِ حُكُومَتِهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ (٢٦)، وَبِالْفِعْلِ وَصَلَهُ أَحَدُ الْخَدَمِ بِخَطَابٍ لِنَقْلِهِ مِنْ تَيَاوَا إِلَى بِيَلَا Beyla ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنْ رَأْسِ الْفَيْلِ، وَهَنَّاكَ اسْتَقْبَلَهُ مُحَمَّدُ شَيْخِ النَّيْلِ، الَّذِي لَا يَعْنِي اسْمُهُ أَنَّهُ شَيْخُ النَّهْرِ؛ بَلْ إِنَّهُ يَنْتَمِي لِقَبِيلَةِ شَيْخِ النَّيْلِ، وَهِيَ مِنَ الدَّافِنِيَّةِ Daveina، وَهُوَ شَيْخٌ كَانَ يَقُومُ بِرِحَلَاتٍ مُنْتَظِمَةً إِلَى جُونْدَرِ، وَأَبْدَى إِعْجَابَهُ بِالسَّبِيلِ الَّتِي يَنْتَهَجُهَا بُرُوسٌ لِلْوُصُولِ سَالِمًا إِلَى سِنَارٍ (٢٨). وَغَادَرَ فِي ١٧ مَارِسَ مَتَّجَهَا إِلَى تَيَاوَا مُتَّبِعًا طَرِيقَ شَمَالِ الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ، وَمَنْقَاطِعًا مَعَ طَرِيقِ مُرُورِ قَوَافِلِ الْحَجِّ، وَالتَّجَارَةِ الْقَادِمَةِ مِنَ السُّودَانِ الْغَرْبِيِّ وَوُصُولًا إِلَى سِنَارٍ، وَمِنْهَا إِلَى سَوَاكِنِ (٢٩)

وسارَ بروسُ، بصُحبةِ خادِمِهِ "المسنِّ والمُخلصِ" سُلَيْمانَ مِنْ بَيْلَا إِلَى سِنارَ فِي طَرِيقِ مُباشِرٍ عَبرَ الصَّحراءِ، وَفِي حِمايةِ حاكِمِ عَظْبَرَةَ، وَوَصَلَ إِلى رَأْسِ الفِيلِ الَّذِي بِها سَوقٌ عَظِيمَةٌ، وَتَوفِّرُ لِلبلادِ المَنتِجاتِ وَالسَّلْعِ كافَّةً، وَلَأنَّ الوَقتَ كانَ مُنذراً بِهَبُوبِ رِيحِ السَّمومِ؛ فَإِنَّهُ تَوَقَّفَ فِي الطَّرِيقِ بَينَ رَأْسِ الفِيلِ وَسِنارَ^(٣٠)، وَفِي اليَومِ السَّادِسِ وَعَندَ الفَجْرِ سارَ بِياسِ مُنقَطِعِ النَّظيرِ، وَقامَ بِقياسِ الطَّرِيقِ عَبرَ البُوصَلَةِ، وَاسْتَنجَحَ أَنَّهُمْ يَسيرُونَ فِي الطَّرِيقِ الخَطَأَ، وَلَيسَ نَحوَ سِنارَ بَعَدَ أَنْ أُوغِلُوا فِي الشَّمالِ الغَربِيِّ. وَسرَّعانَ ما أَخبرَهُ أَحدُ رِجالِ القَوافِلِ أَنَّهُ يَعلَمُ الطَّرِيقَ، وَأَنَّهمَ لَمَ يَخرُجُوا عَنهُ إِلا قَليلًا، وَعَليهِمُ مواصَلَةُ السَّيرِ فِي خَطِّ مُستَقِيمِ^(٣١). وَأوردَ بروسُ المَسافاتِ التَّالِيَةَ فِي رِحلتِهِ مِنْ تَبُوا إِلى سِنارَ:

- بَيْلَا، غَربُ الجَنوبِ الغَربِيِّ تَبَعُدُ ٢٨ مِيلًا عَلى أَقصى تَقديرِ.
 - حَسِيبُ جَنوبًا، وَمَتَّجِهَةٌ إِلى الغَربِ قَليلًا.
 - جَبَلُ امسِيدِيرا Imsiddera جَنوبًا حَوالِي ٨ أَميالٍ، وَبِها قَدْرٌ جَيِّدٌ مِنَ المِياهِ.
 - مَندِيرَا Mendera شَمالًا ٤٨ مِيلًا، وَبِها مِياهُ فِي الأَبارِ العَميقَةِ.
 - رَشيدُ جَنوبًا حَوالِي ٣٣ مِيلًا، بِها وَفَرَةٌ مِنَ المِياهِ طَوالِ العَامِ.
 - وَسِنارُ جَهةُ الغَربِ، وَإلى الشَّمالِ قَليلًا، وَتَبَعُدُ حَوالِي ٧٠ مِيلًا عَن عَظْبَرَةَ^(٣٢).
- وتَجدرُ المَلاحَظَةُ هُنا أَنَّهُ قَدَ ظَهَرَ مِنَ نِهايَةِ القُرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ، وَحَتَّى بَدايَةِ القُرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ قُوَّةُ الشُّلُكِ Shilluk، وَكانَتِ فِي تَزايدٍ مَلحُوظِ. وَقَدَ سَجَّلَ بَرُوسُ الَّذِي زارَ سِنارَ عَامَ ١٧٧٢م وَوَقوعَ إِليسَ Eleis، الَّذِي تَحرسُ الطَّرِيقَ إِلى كَرَدفانَ، تَحْتَ سَيطَرَةِ سِنارَ، مُعتَبِرًا إِياها أَحَدَ النِّقاطِ الثَّلاثَةِ الرَّئيسَةِ فِي سُلْطَنَةِ الفُونِجِ، وَبَعَدَ سِنارَ نَفسِها، الواقِعَةُ عَلى طَرِيقِ الحَجِّ: وَكانَ حاكِمُها يَنتمِي دائِمًا لِلعائِلَةِ المَلِكِيَّةِ. وَمَنْ وَصَفَ بَرُوسَ؛ فَإِنَّهُ يَبدوُ أَنَّ غالِبيَّةَ أَهلِ إِقليمِ إِليسَ كانوا مِنَ الشُّلُكِ، وَيَبدوُ أَيضًا أَنَّ الشُّلُكِ هُمُ مَنْ مَثَلُوا التَّهديدَ لِطَرِيقِ القَوافِلِ وَلِلشُّعوبِ المُجاوِرَةِ: وَتَشيرُ مَلاحَظَاتُ بَرُوسَ غَيرَ المَمنُورَةِ أَنَّهُ رَأى غاراتِ لِلشُّلُكِ^(٣٣).

ثالثاً- الأحوال السياسية والاقتصادية في سنار من خلال رحلة بروس:

وفي خضم اليأس الذي ألم ببروس ورفاقه؛ فوجئ بوصول خطابات من الحاج بلال إلى ياسين وبروس نفسه يخبرهم بأن الأوامر قد صدرت له، ولشيخ بيلا باستقبالهم أحسن استقبال، وتيسير رحلته إلى سنار، والإسراع بها^(٣٤). وبالفعل وصل بروس إلى سنار، والتقى ملكها عدلان الذي كان جالساً على وسادة مبسوطة على الأرض، ومغطاة بسجاد فارسي، وحوله عدد من قطع الثياب البنديّة المطرزة بالذهب، وإن كان ثوبه بسيطاً مصنوعاً من قماش سورات Surat القطني أزرق اللون، الذي لم يكن مختلفاً فيما يبدو عن زي خدمه وحاشيته. وكان عاري الرأس، قد شاب شعره، وإن كان في عمر الرابعة والثلاثين. وكان يتحدث العربية، واستغرب من إتقان بروس لها، وهو القادم من الحبشة؛ فأجابه بروس بأنه كان في مصر، وتركيا، وشبه الجزيرة العربية؛ حيث تعلم العربية بها، كما أخبره أنه يتحدث الحبشية، كما يفقه اليونانيون والأتراك^(٣٥)، وعقد بروس مع الملك مناقشة مطولة؛ أظهرت سعة اطلاع ملك سنار، ودقّة رؤيته للوضع الإقليمي والدولي في عصره، والتنافس الأوروبي التركي المصري في البحر الأحمر. ثم التقى بروس بقاضي سنار على مغربي Ali Mogrebi، وقاضي كردفان الذي كان موجوداً بسنار حينذاك^(٣٦).

ورغم علم كثيرين من الرحالة الأوروبيين أن موطن الفونج كان يقع في غرب سنار وجنوبها، كان أولهم بروس الذي توصل إلى أن أصل الفونج من الشلك، وعدت روايته هذه -عملياً- الدليل الوحيد الذي تقوم عليه هذه النظرية، وعلى حد قول المتخصص في دولة الفونج جاي سبولدينج Jay Spulding: "ولحسن الحظ فإن جزءاً من رحلة بروس وزيارته لسنار قد نشر. وتتكون الوثيقة من جمل وفقرات متجزئة تكسوها ملاحظات شخصية، وتقرير عن الطقس، وروايات شفوية، وتبدو على أنها انعكاس أمين، وملاحظة دقيقة، لكنها تقدم مشكلة حقيقية أمام المؤرخ للاختيار والتفسير، وكان أول مؤرخ يواجه هذه المشكلة هو مؤلف الرحلات نفسه^(٣٧)! وصادف بروس خلال زيارته لسنار أحد كبار المسؤولين في البلاط في مملكة سنار، وهو سيد القوم أحمد، وفي مقابل العلاجات الطبية زود المسؤول ضيفه الإسكتلندي بمعلومات عن تاريخ

سِنَارٌ وَحُكُومَتَهَا، وَوَجَدَ جَانِبٌ مِنْ رِوَايَتِهِ طَرِيقًا فِي عَمَلِ بَرُوسَ. وَكَانَ مِنْ نِتَاجِ هَذَا الْعَمَلِ لِحَسَنِ الْحِظِّ أَنْ قَدَّمَ سَيِّدُ الْقَوْمِ أَحْمَدُ رِوَايَةً مَكْتُوبَةً مُوجِزَةً عَنِ مَمْلَكَةِ الْفُونَجِ ضَمَّتْ قَائِمَةً بِمُلُوكِ الْمَمْلَكَةِ، وَمُدَّةَ حُكْمِ كُلِّ مِنْهُمْ وَطَرِيقَةَ مَوْتِهِمْ^(٣٨)، وَكَانَ مُسْتَهْلَهَا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَارِيخُ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ الْفُنْجِيَّةِ بِمَدِينَةِ سِنَارِ الْمَحْرُوسَةِ الْمَحْمِيَّةِ.

بَعْدَ الْمَمْلَكَةِ النَّوْبِيَّةِ أَوَّلُ مَنْ نَزَلَ بِسِنَارِ السُّلْطَانُ عِمَارَةُ بْنُ عَدْلَانَ عَامَ تِسْعَةِ مِائَةٍ وَعَشْرٍ سِنِينَ مِنْ هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَتُوفِّيَ عَامَ تِسْعِ مِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَمُلْكُهُ ثَلَاثُونَ سَنَةً^(٣٩).

وَلَقَدْ اخْتَلَفَ فِي أَسْلِ الْفُونَجِ الْأَوَّلِ، وَهُنَاكَ أَكْثَرُ مِنْ رِوَايَةٍ، وَأَمَّا الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ أَنَّ أَوَّلَ مُلُوكِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هُوَ عِمَارَةُ دِنْقَسَ (٩٤١-٩١١هـ / ١٥٠٥-١٥٣٤م)، وَيُنْسَبُ إِلَيْهِ بِنَاءُ عَاصِمَتِهِمْ (سِنَارِ) - الْمَمْلَكَةِ الزَّرْقَاءِ- وَقَدْ أَدْخَلُوا عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الْمَمَالِكِ التَّابِعَةِ لَهُمْ، وَقَدْ تَعَاقَبَ عَلَى حُكْمِهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ أُسْرَةِ عِمَارَةَ دِنْقَسَ، حَتَّى سَقُوطِهَا عَلَى أَيْدِي الْجَيْشِ التُّرْكِيِّ الْمِصْرِيِّ (١٢٣٧هـ / ١٨٢١م)، وَذَلِكَ بَعْدَ الصَّرَاحِ الَّذِي دَامَ لِأَكْثَرِ مِنْ ٤٠ سَنَةً بَيْنَ الْفُونَجِ وَالْهَمَجِ^(٤٠).

وَأُظْهِرَتْ فَرَضِيَّةُ الشُّلُوكِ عَنِ أُصُولِ الْفُونَجِ بِقُوَّةٍ فِي عَمَلِ بَرُوسَ. فَفِي الْمُلَاحَظَاتِ الْمَطْبُوعَةِ فِي نِهَايَةِ عَمَلِ الرَّحَلَاتِ لَدِينَا بَيِّنَاتٌ (لَكِنْ لَيْسَتْ بِالضَّرُورَةِ بَيِّنَاتٌ كَامِلَةٌ) لِمَا أَقَامَ عَلَيْهِ رِوَايَتَهُ. وَهَذِهِ الْبَيِّنَاتُ مَأْخُودَةٌ بِوُضُوحٍ مِنَ الْعَدِيدِ مِنَ الشُّهُودِ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ تَنَاقُضَاتٍ فِي التَّسْمِيَّاتِ وَالطَّبُوعَاتِ الْغَرَفِيَّةِ؛ لَكِنَّهُمْ يَحْمِلُونَ شَهَادَةً عَلَى رِوَايَةٍ قَوِيَّةٍ رَسَخَتْ فِي سِنَارِ فِي عَامِ ١٧٧٢م، وَهِيَ أَنَّ النُّخْبَةَ الْحَاكِمَةَ مِنَ الْفُونَجِ كَانُوا فَرَعًا مِنَ الشُّلُوكِ، وَهِيَ قَبِيلَةٌ اسْتَقَرَّتْ عَلَى النَّيْلِ الْأَبْيَضِ^(٤١). وَكَانَتْ رِوَايَةُ بَرُوسَ مِنْ أَهَمِّ الرِّوَايَاتِ الَّتِي تَعَلَّقَتْ بِجُذُورِ سَلْطِينِ الْفُونَجِ إِلَى جَانِبِ رِوَايَةِ الرَّحَالَةِ الْيَهُودِيِّ دِيْفِيدِ رُوبِينِي D. Reubeni الَّذِي مَرَّ بِسِنَارِ^(٤٢) خِلَالَ عَهْدِ مَلِكِ اسْمِهِ عِمَارَةَ، وَهُوَ يَعُدُّ الْحَاكِمَ الْأَوَّلَ لِلْفُونَجِ بِسِنَارِ فِي عَامِ ١٥٢٣م، وَرِوَايَةُ الشَّاطِرِ بُصَيْلِي بِالْأَصْلِ الْأُمُويِّ بَعْدَ أَنْ نُشِرَ وَثِيقَةٌ تَعُودُ لِلْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ، وَتُوكِّدُ هَذِهِ الصَّلَةَ، وَهَذَا مَا يَتَّفَقُ مَعَ الرِّوَايَاتِ السُّودَانِيَّةِ الْمَحَلِّيَّةِ؛ فَيَقُولُونَ بِأَنَّ أَسْلَ الْفُونَجِ يَرْجِعُ إِلَيَّ بَنِي أُمِيَّةَ، وَذَلِكَ

بَعْدَ اسْتِنَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ عَلَى مَرْكَزِ الْخِلَافَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِدِمَشْقَ سَنَةَ (١٣٢هـ / ٧٤٩م)، فَقَدَ قَامُوا بِتَبَتُّعِ أُمَرَاءِ بَنِي أُمِيَّةَ، وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي اسْمِ الْأَمِيرِ الْأُمَوِيِّ الَّذِي قَامَ بِالْهُرُوبِ؛ فَقِيلَ هُوَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْمُرَوَانِيِّ؛ إِذْ دَخَلَ الْحَبَشَةَ، وَظَلَّ بِهَا فِتْرَةً، وَمَا لَبِثَ أَنْ هَاجَرَ إِلَى جِبَالِ الْفُونَجِ، وَبَعْدَ مَدَّةٍ تَزَوَّجَ مِنْ ابْنَتِهِ الْمَلِكِ، وَقِيلَ إِنَّ الْأَمِيرَ الْأُمَوِيِّ هُوَ مِنْ آلِ الْغَمْرِ بْنِ يَزِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرَوَانَ، وَذَلِكَ بَعْدَ قَتْلِ أَبِيهِ الْغَمْرِ مِنْ قِبَلِ الْعَبَّاسِيِّينَ؛ فَهَرَبَ هَذَا الْأَمِيرُ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ، وَقَدْ قِيلَ إِنَّ الْأَمِيرَ الْأُمَوِيِّ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَرَوَانَ آخِرُ خُلَفَاءِ بَنِي أُمِيَّةَ؛ فَقَدْ هَرَبَ مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ إِلَى بِلَادِ السُّودَانَ حَتَّى اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَطَافُ بِمَدِينَةِ الْبَاصِغِ، وَقِيلَ أَيْضًا إِنَّ الْأَمِيرَ الْأُمَوِيِّ هُوَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ الَّذِي هَاجَرَ مِنْ بِلَادِ الْحِجَازِ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ، وَلَمْ يَدَمْ بِهَا كَثِيرًا؛ فَهَاجَرَ إِلَى شَمَالِ إِرِيترِيَا، وَقَابَلَ مَلِكَ كَرْنَ الَّذِي شَاهَدَ فِيهِ الشَّجَاعَةَ، وَالْفِطْنَةَ؛ فَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ، وَفِي الْآخِرِ تَوَلَّى عَرْشَ الْبِلَادِ (٤٣).

وَبِالنَّظَرِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ سَالِفًا يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ الْفِتْرَةَ الزَّمْنِيَّةَ بَيْنَ سُقُوطِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ عَلَى أَيْدِي الْعَبَّاسِيِّينَ فِي عَامِ ١٣٢هـ / ٧٤٩م، وَبَيْنَ قِيَامِ دَوْلَةِ الْفُونَجِ فِي سَنَةِ ٩١١هـ / ١٥٠٥م هِيَ فِتْرَةٌ زَمْنِيَّةٌ كَبِيرَةٌ جِدًّا تَرِيدُ عَنْ ثَمَانِيَةِ قُرُونٍ، فَكَيْفَ تَمَكَّنَ الْفُنْجِيُّونَ مِنْ إِرْجَاعِ نَسَبِهِمْ لِلأُمَوِيِّينَ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ نَجَدُ عِدَدًا مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ قَدَ رَجَّحُوا بِأَنَّهُمْ أُسْرَةٌ ذَاتُ نَسَبٍ أُمَوِيٍّ نَزَلَتْ فِي الْمَنْطِقَةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَعَمَلَتْ عَلَى نَشْرِ الْإِسْلَامِ بِالطَّرْقِ السَّلْمِيَّةِ، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ الدَّعَايَةِ الدِّينِيَّةِ مِنْ خِلَالِ الْإِنْتِسَابِ إِلَى بَنِي أُمِيَّةَ، وَقَدْ اخْتَلَطَتْ تِلْكَ الْأُسْرَةُ بِالسُّكَّانِ الْمَحَلِّيِّينَ مِمَّا نَتَجَّ عَنْهُ فِيمَا بَعْدَ قِيَامِ دَوْلَةِ الْفُونَجِ فِي سِنَارَ، وَاسْتَدَادَا إِلَى مَا سَبَقَ؛ فَإِنَّ سُلَاطِينَ سِنَارَ مِنَ الْفُونَجِ قَدَ ادَّعَوْا النَّسَبَ لِلأُمَوِيِّينَ، وَحَرَصُوا عَلَى إِثْبَاتِ ذَلِكَ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ تَأَكِيدِ هَذَا النَّسَبِ وَصِحَّتِهِ، فَلَا نَنْسَى دَوْرَهُمْ فِي انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي تِلْكَ الْمَنَاطِقِ مِنَ السُّلْطَنَةِ، وَكَانَ الْهَدَفُ مِنْ هَذَا الْإِنْتِسَابِ هُوَ قَصْدُ التَّجَارَةِ مَعَ الْمَمَالِكِ الْمَجَاوِرَةِ، وَلَا سِيَّمَا التَّجَارَةَ مَعَ مِصْرَ الْمَمْلُوكِيَّةِ (٤٤).

كَمَا ظَهَرَتْ بَعْضُ الرُّوَايَاتِ الشَّائِعَةِ فِي الْقَرْنَيْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ وَالْعَشْرِينَ، وَقَامَ بِجَمْعِهَا أَفْرَادٌ كَثِيرُونَ، وَسُجِّلَتْ فِي Sudan Notes and Records، وَرَوَايَةُ آرِكِلِ Arkell بِالْأَصْلِ الْبِرْنَاوِي لِلْفُونَجِ (٤٥)، فَقَدَ أَرْجَعَهُ الْبَعْضُ إِلَى الْمَائِي (عُثْمَانُ) الَّذِي طُرِدَ مِنْ

مَمْلَكَةُ الْبَرْنُو فِي خِلالِ عَامِ ٨٩٢هـ — / ٤٨٦م، وَقَدَ قَالُوا إِنَّ عَمارةَ دِنْقِيسَ مِنْ نَسْلِ الْمَمايِ عَثْمَانَ، الَّذِي يَدْعَمُ ذَلِكَ هُوَ وَجُودُ اسْمِ عَمارةَ دِنْقِيسَ مِنْ ضِمْنِ الْمُلُوكِ الْبَرْنُوِيِّينَ؛ الَّذِينَ ذَكَرُوا فِي الْجَدَاوِلِ الْخاصَّةِ بِمُلُوكِ الْبَرْنُوِ (٤٦)، وَيَتَّفِقُ الدُّكْتُورُ-إِبْرَاهِيمُ رَجَبٌ- مَعَ هَذَا الرَّأْيِ، وَذَلِكَ لِمَدَى الْعِلاَقَةِ الْوَطِيدةِ بَيْنَ الْبَرْنُوِ وَالْفُونَجِ مِنْ قَدِيمٍ، حَيْثُ تَتَشابَهُ الْعاداتُ وَالْتَقاليدُ بَيْنَهُمْ (٤٧).

أَمَّا الْحالةُ الْاِقْتِصاديةُ لِسِنارٍ وَقَتَ زِيارَةِ بَرُوسٍ، فَكَانَ مِنَ الْواضِحِ اسْتِمْرارُ اعْتِماَدِ مَمْلَكَةِ الْفُونَجِ فِي اِقْتِصادِها عَلَى تِجارَةِ الذَّهَبِ، وَكَانَ الذَّهَبُ الَّذِي يَتَمُّ تَعْدِينُهُ داخِلَ الْمَمْلَكَةِ مَمْلُوكًا بِالْكَامِلِ لِلْسُلْطانِ الَّذِي يُنظِمُ التَّجارَةَ أَيضًا، وَحَرَكةَ الْقَوافِلِ إِلَى الْوُجْهاتِ الْبَعيدةِ، مِثْلَ الْقاهِرَةِ، وَجَدَّة. كَمَا حَصَلَتْ سِنارُ عائِداتٍ كَبيرةً مِنَ الرُّسُومِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَى طُرُقِ الْقَوافِلِ الْمُؤدِّيةِ إِلَى مِصرَ، وَمَوانئِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَعَلَى حَرَكةِ الْحُجاجِ مِنَ السُّودانِ الْغَرْبيِّ، وَفِي نِهايةِ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ أَقامَتِ الْفُونَجُ عِلاقاتٍ تِجارِيَّةً مَعَ الدَّوْلَةِ الْعُثمانيَّةِ، وَبِحُلُولِ الْعامِ ١٧٠٠م، وَمَعَ صَكِّ الْعَمَلَةِ، أُقِيمَ نِظامُ سَوقِ كَبيرٍ فِي سِنارٍ خارِجِ السَّيْطِرةِ إِلَى حَدِّ كَبيرٍ؛ وَقَدَّ السُّلْطانُ سَيطرتَهُمْ عَلَى التَّجارَةِ لِصالِحِ طَبَقَةِ وَسْطَى تِجارِيَّةٍ جَديدةٍ (٤٨). وَيُوجِزُ بَرُوسُ وَضْعَ التَّجارَةِ فِي سِنارٍ فِي عَهْدِهِ قائِلًا:

"إِنَّ تِجارَةَ سِنارٍ لَيْسَتْ كَبيرةً، وَلَيْسَتْ لَدَيْهِمْ سَلْعٌ مُصنَعَةٌ، لَكِنَّ السَّلْعَةَ الْأَساسِيَّةَ الْمُنْتَشِرةَ هُنَاكَ هِيَ قَماشُ سِوراتِ الْقَطْنيِ الْأَزْرَقِ. وَسابِقًا عِنْدَما كَانَتْ الطُّرُقُ مَفْتُوحَةً وَالتَّجارُ يَمضُونَ فِي قَوافِلٍ بِأَمانٍ كَبيرٍ كَانَتْ السَّلْعُ الْهِنْدِيَّةُ تُجَلِبُ بِكَمِيَّاتٍ كَبيرةً إِلَى سِنارٍ مِنْ جَدَّة، ثُمَّ تَنْتَشِرُ إِلَى بِلادِ السُّودِ (وَرِيبًا إِلَى السُّودانِ الْغَرْبيِّ). وَكَانَ مُقابِلَ هَذَا الْقَماشِ الذَّهَبُ وَهُوَ تَبَرٌ، وَقُرُونٌ وَحيدٌ الْقَرْنِ، وَالْعاجُ، وَرِيشُ النِّعامِ، وَفَوقَ كُلِّ ذَلِكَ الْعَبِيدُ أَوْ الزُّجاجُ الَّذِي يَصْدُرُ مِنْهُ مِنْ سِنارٍ ما يَفُوقُ ما يَتَمُّ تَصْدِيرُهُ مِنْ مَنطِقَةِ شَرْقِ أَفْرِيقِيا بِأَكْمَلِها. لَكِنَّ هَذِهِ التَّجارَةَ قَدَ هَجَرَتْ بِاسْتِثْناءِ تِجارَةِ الذَّهَبِ وَالْعاجِ. وَلا يَزالُ ذَهَبُ سِنارٍ ذا سَمْعَةٍ طَبِيبَةٍ، وَيَعُدُّ الْأَفْضَلَ فِي أَفْرِيقِيا، وَمِنْ ثَمَّ يَتَمُّ تَصْدِيرُهُ إِلَى مُوكَا Mocha لِينْقَلَ إِلَى الْهِنْدِ؛ حَيْثُ يوزَعُ عَلَى مَراكِزِ تَصْنِيعِهِ حُلِيًّا" (٤٩). وَذَكَرَ بَرُوسُ أَنَّ هُنَاكَ تِجارَةَ داخِليَّةً نَشِيطَةً نَوعًا ما تَتَمُّ فِي مَوسِمِ الْجَفافِ (٥٠).

ولَحَظَ بَرُوسٌ أَنَّ عَرَبَ الدَّافِينَةِ هُمُ الَّذِينَ تَوَلَّوْا حَمَلَ الذَّهَبِ إِلَى الْحَبَشَةِ بِحُكْمِ صِلَاتِهِمُ الطَّيِّبَةِ مَعَ مَلِكِهَا، وَلَمْ تَعُدِ الْقَوَائِلُ تَأْتِي مِنَ السُّودَانِ، أَوْ مِنَ الْحَبَشَةِ، أَوْ مِنَ الْقَاهِرَةِ لِسِنَارٍ. وَكَانَ عُنْفُ الْعَرَبِ، وَخِيَانَتُهُمْ لِحُكُومَةِ سِنَارٍ قَدْ أَحْكَمَ الْحِصَارَ عَلَى حُكُومَةِ سِنَارٍ بِاسْتِنَاءِ رِحْلَةٍ سَنَوِيَّةٍ فَقَطْ، وَتَمَّ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ، تَخْرُجُ مِنْ سِنَارٍ إِلَى جِدَّةَ عِبْرَ سَوَاكِنِ^(٥١)، كَمَا ذَكَرَ بَرُوسٌ أَنَّ قِبَائِلَ عَرَبِيَّةً كَانَتْ خَاضِعَةً لِحُكْمِ سِنَارٍ، وَمِنْهُمْ قَبِيلَةٌ وَدَّ عَجِيبِ الَّتِي قَدَّمَ أَهْلُهَا مَبَالِغَ كَبِيرَةٍ لِسِنَارٍ يَتِمُّ دَفْعُهَا لِلْمَلِكِ (الْمَكِّ)^(٥٢)، وَهُمُ عَرَبٌ يَعِيشُونَ عَلَى مَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ عَنِ سِنَارٍ، وَعَلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَكَانُوا يَتَجَنَّبُونَ الْمُرُورَ بِسِنَارٍ فِي مَوْسِمِ انْتِشَارِ الْهَوَامِ، وَقَدْ امْتَلَكْتَ قَبِيلَةَ رِفَاعَةَ Refaa، مِنْ بَيْنِ الْعَرَبِ الْمُتَحَالِفِينَ حِينَذَلِكَ مَعَ شَيْخِ عَدْلَانَ، حَوْلِي ٢٠٠ أَلْفَ رَأْسٍ مِنَ الْبَيْلِ، وَوَصَلَتْ الضَّرْبِيَّةُ الَّتِي يَدْفَعُهَا الْعَرَبُ حِينَذَلِكَ إِلَى ١٠٠ أَلْفِ أُونِصَةِ مِنَ الذَّهَبِ، وَكَانُوا يُشَارِكُونَ بِنَشَاطٍ فِي قَافِلَةِ الْحَجِّ الْخَارِجَةِ مِنْ سِنَارٍ^(٥٣) خَاصَّةً أَنَّ الْقَافِلَةَ الْخَارِجَةَ إِلَى مَكَّةَ كَانَتْ تَتَطَلَّبُ إِمْدَادَاتٍ كَثِيرَةً، وَتَعْمَلُ أَعْدَادٌ كَبِيرَةً بِهَا مِنَ الْعَمَالِ خَاصَّةً أَنَّ قَوَائِلَ الْحَجِّ الْأَفْرَبِيَّةِ كَانَتْ تَعُودُ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ مُحْمَلَةً بِالسَّلْعِ الْهِنْدِيَّةِ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا مِنَ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ إِلَى الْمَحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ^(٥٤). وَهَكَذَا ظَلَّتْ قَوَائِلُ الْحَجِّ بِمَثَابَةِ شَرِيَانِ الْحَيَاةِ لِسُلْطَنَةِ سِنَارٍ فِي وَقْتِ زِيَارَةِ جِيمِسَ بَرُوسَ لَهَا، وَفَقَّا لِمَا وَرَدَ فِي عَمَلِهِ.

وَيَبْدُو أَنَّ سُلْطَانَ سِنَارٍ كَانَ يَحُوزُ سَيْطَرَةً كَبِيرَةً عَلَى الْحَيَاةِ الْأَقْتِصَادِيَّةِ بِالْبِلَادِ، وَكَانَ رَكِيزَةَ الدَّورِ الْأَقْتِصَادِيِّ لِلْسُلْطَانِ احْتِكَارَهُ لَتَعْدِينَ الذَّهَبِ فِي سِنَارٍ؛ وَكَانَتْ كُنْطَا صَخْرِيَّةً كَبِيرَةً مِنْ أَمْلَاكِ الْمَلِكِ، وَالْكُنْطَلُ الصَّخْرِيَّةُ الْأَصْغَرُ مِنْ أَمْلَاكِ مَسْئُولِي الدَّوْلَةِ، وَوَضَعَ التُّرَابِ الَّذِي يَخْتَلِطُ بِشَدْرَاتِ الذَّهَبِ فِي أَكْيَاسٍ صَغِيرَةٍ فِي الْأَسْوَاقِ الْعَامَّةِ لِبَيْعِهِ. وَلَمْ تَتَجَاوَزْ سَيْطَرَةُ الْعَمَلَةِ الْمَلِكِيَّةِ كَوْنَهَا عَمَلَةً حَدِيدِيَّةً صَغِيرَةً مِنْ سِنَارٍ؛ بَلْ اسْتُخْدِمَتْ عَمَلَاتٌ أَعْجَبِيَّةٌ كَثِيرَةٌ كَانَتْ مُنْتَشِرَةً وَسَطَ التُّجَارِ السُّودَانِيِّينَ، وَكَانَ مَصْدَرُ آخِرِ الدَّخْلِ لِلْأُسْرَةِ الْمَلِكِيَّةِ، وَهُوَ الْإِغَارَةُ عَلَى الْقِبَائِلِ لِجَلْبِ الْعَبِيدِ: "وَكَانَ مَلِكُ سِنَارٍ، كَمَلِكِ دَارْفُورٍ، يُرْسِلُ قَوَاتِهِ إِلَى الشُّعُوبِ الَّتِي يُحَارِبُهَا كُلَّ عَامٍ لِجَلْبِ الْعَبِيدِ. وَيَمْلِكُ الْمَلِكُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْعَبِيدِ الْمَجْلُوبِينَ النِّصْفَ، وَسَوَاءٌ أَكَانَ يَتِمُّ بَيْعُهُمْ لِلتُّجَارِ الْأَجَانِبِ، أَمْ يَدْخُلُونَ فِي الْجَيْشِ، أَوْ الْجِهَازِ الْإِدَارِيِّ أَوْ الْحَرِيمِ؛ فَقَدْ مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْعَبِيدِ ثَرْوَةً لَدَى

السُّلْطَانِ. كَمَا بَادَرَتْ حُكُومَةُ الْفُونْجِ بِرِعايَةِ طَرِيقِ التَّجَارَةِ الدَّوْلِيِّ الْمَارِّ بِسِنَارٍ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سَفَرَاءَ الْفُونْجِ فِي مِصْرَ الْعُلْيَا (وَرَبَّمَا فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى) سَعُوا لِجَذْبِ جُنُودٍ وَسَلَّحُوا إِلَى سِنَارٍ؛ فَإِنَّ مَجْتَمَعَ التَّجَارَةِ الْمُتَعَدِّدِ التَّقَاتِ فِي سِنَارٍ عِنْدَ بَدَايَةِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ يَشْهَدُ بِالضِّيَافَةِ الْمَلِكِيَّةِ الطَّيِّبَةِ. وَحَتَّى نِهَايَةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ؛ فَإِنَّ بُورْكْهَارْتِ Burckhardt يَتَحَدَّثُ عَنْ "تِجَارَةِ سِنَارٍ، وَهِيَ بِالْأَسَاسِ وَكَلَاءِ مَلِكِ سِنَارٍ وَوَزِيرِهِ، التَّجَارَةُ الْكَبَارُ فِي هَذَا الْمَكَانِ". كَمَا تَمَّ تَشْجِيعُ التَّجَارَةِ الْخَاصَّةِ لَكِنْ ظَلَّتِ الرِّعَايَةُ الْمَلِكِيَّةُ لِلتَّجَارَةِ مُهَيْمِنَةً عَلَى النِّشَاطِ التَّجَارِيِّ بِالسُّلْطَنَةِ، وَهَكَذَا كَانَ طَرِيقُ الْقَوَافِلِ الْمَلِكِيِّ، وَحَقُّ السُّلْطَانِ فِي أَخْذِ جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنَ الْعَبِيدِ الْمَأْسُورِينَ، وَسُلْطَنَتُهُ عَلَى الذَّهَبِ قَدْ مَنَحَتْ مَلِكَ سِنَارٍ دَوْرًا مَحْوَرِيًّا فِي اِقْتِصَادِ هَذِهِ الْبِلَادِ (٥٥).

وَتَجَدُّرُ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ مَوْسَسَةَ الرِّقِّ كَانَتْ رَاسِخَةً فِي شِمَالِ السُّودَانِ حَتَّى قَبْلَ الْعَهْدِ التُّرْكِيِّ بِهِ. وَكَانَ الْعَبِيدُ ذَوِي مَكَانَةٍ وَسَطٍ نُخْبَةَ الدَّوْلَةِ فِي عَصْرِ مَا قَبْلَ اسْتِعْمَارِ، وَيَعْمَلُونَ فِي وِطَائِفِ بِيروْقَرَاتِيَّةٍ وَعَسْكَرِيَّةٍ، وَكَانُوا سَرَارِي لِنُبُلَاءِ. وَكَانَ زُعَمَاءُ الْمَجْتَمَعَاتِ الْبُورْجُوزِيَّةِ فِي فِتْرَةٍ مَا قَبْلَ اسْتِعْمَارِ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ يَمْتَلِكُونَ الرِّقِيقَ، وَيَسْتَعْمِدُونَ فِي تَرْقِيَةِ أَنْمَاطِ الْمَعِيشَةِ، وَإِنْ كَانَتْ أَعْدَادُ الرِّقِيقِ قَلِيلَةً وَنَادِرًا مَا كَانَ يَتَمُّ بِيَعَهُمْ. وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُمْكِنِ ازْدِهَارُ امْتِنَاكِ الْعَبِيدِ فِي سِنَارٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَلِكِيَّةَ ظَلَّتْ اِمْتِيَازا لِنُبُلَاءِ الْإِقْطَاعِيِّينَ (٥٦).

كَمَا كَانَ الرِّقِيقُ فِي سِنَارٍ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ عَلَى قَدْرِ كَبِيرٍ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ؛ فَيَذْكَرُ بَرُوسٌ أَنَّ الرِّقِيقَ كَانُوا فِي مَرْتَبَةٍ عَالِيَةٍ جَدًّا فِي سُلْطَنَةِ الْفُونْجِ، وَأَنَّ أَوَّلَ مَرَاتِبِ النَّبَالَةِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ هُوَ الْعَبْدُ. وَأَنَّ الرِّقَّ فِي سِنَارٍ هُوَ النَّبَالَةُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَهُوَ مَا يُشْبِهُ وَضَعَ الْمَمَالِيكِ فِي مِصْرَ (٥٧).

وَبَدَأَ نَسِيجُ النِّظَامِ السِّيَاسِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ لَلْفُونْجِ فِي التَّحَلُّلِ خِلالَ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ، وَهُوَ تَطَوَّرَ كَمَا أَكْثَرَ وَضُوحًا فِي الْأَزْمَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الْمُتَعاقِبَةِ وَالتَّدهُورِ فِي فِكْرَةِ هَيْمَنَةِ الْفُونْجِ وَالْدمَارِ؛ الَّذِي لَحِقَ بِقُوَّةِ الْعَشِيرَةِ الْمَلِكِيَّةِ، وَطَبَقَةِ النُّبُلَاءِ، وَالْأُسْرَةِ الْمَالِكَةِ نَفْسِهَا، وَتَصَارُعِ الْقَادَةِ الْعَسْكَرِيِّينَ عَلَى السُّلْطَةِ. كَمَا تَدَهُورُ بِنَاءِ الْإِدَارَةِ الْإِقْلِيمِيَّةِ، وَنِظَامِ تَحْصِيلِ الْعَائِدَاتِ؛ مِمَّا أَدَّى إِلَى ظُهُورِ الْفَصَائِلِ الْإِقْلِيمِيَّةِ، وَاقْتِصَادِ الْغَنَائِمِ. وَكَانَتْ سِنَارُ نَفْسِهَا قَدْ نَهَبَتْ عَلَى نَحْوِ مُتَكَرِّرٍ، وَتَرَكْتَهَا فِي النِّهَايَةِ الطَّبَقَةَ الْحَاكِمَةَ (٥٨).

وَشَهِدَ الْقَرْنُ الْخَامِسَ عَشَرَ مَوْجَةً ثَانِيَةً مِنْ اِنْتِشَارِ الْإِسْلَامِ مِنْ خِلَالِ التِّجَارَةِ مِنْ وَاْدِي النَّيْلِ، وَالْفُقَهَاءِ الَّذِينَ اِنْتَشَرُوا فِي كُرْدِفَانٍ. وَفِي الْعَامِ ١٥٠٠م تَقْرِيْبًا سَقَطَتْ عَاصِمَةُ عُلُوَّةٍ جَرَاءَ هَجَمَاتِ الْعَرَبِ الْقَوَاسِمَةِ وَالْفُونُجِ. وَفِي الْعَامِ ١٥٠٤-١٥٠٥م اُنْشِئَتْ سِنَارُ عَاصِمَةً لِلْفُونُجِ الَّذِينَ اَعْتَقُوا الْإِسْلَامَ. وَلِلتَّعْرِيفِ بِقُوَّةِ سُلْطَنَةِ الْفُونُجِ؛ فَخِلَالِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ فَرَضَتْ سُلْطَنَةُ الْفُونُجِ هَيْمَنَتَهَا عَلَى النُّوبَةِ، وَكَانَتْ دُنُقَلَةً مَمْلَكَةً تَابِعَةً لَهَا. وَكَانَ الشَّلَالُ الثَّلَاثُ هُوَ الْحُدُ بَيْنَ الْفُونُجِ وَالْبِرَابِرَةِ الَّذِينَ اَقْرَبُوا بِالْحُكْمِ الْعُثْمَانِيِّ. وَبِحُلُولِ الرَّبْعِ الثَّانِي مِنْ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ اَصْبَحَ اَهْلُ النُّوبَةِ مُسْلِمِينَ. وَضَمَّ السُّلْطَانُ سَلِيمُ الْاَوَّلُ الْاَرَاضِي الْمَمْتَدَّةَ مِنْ جَنُوبِ اَسْوَانَ حَتَّى الشَّلَالِ الثَّلَاثِ، وَاَقَامَ حَامِيَاتٍ مِنَ الْاَتْرَاكِ وَالْبُوسْنِيِّينَ (٥٩).

وَبَعْدَ سَقُوطِ عَجِيبٍ فِي الْعَامِ ١٦١١م تَقْرِيْبًا اِقْتَصَرَ مَنْصِبُ الْقَاضِي عَلَى شَخْصِيَّاتٍ عَادِيَّةٍ. وَمَعَ نُمُوِّ مَدِينَةِ سِنَارٍ نَفْسِهَا تَزَايَدَ الطَّلَبُ عَلَى الْقَضَاةِ الْمُتَفَقِّهِينَ سِوَاءَ مَنْ دَاخَلَ السُّلْطَنَةَ أَمْ مِنْ خَارِجِهَا. وَكَانَ الْقَرْنُ السَّابِعَ عَشَرَ هُوَ قَرْنُ التَّوَسُّعِ التِّجَارِيِّ الْكَبِيرِ لِسِنَارٍ، الَّذِي اَتَّسَمَ بِالْقَوَائِلِ الْمُسْتَمِرَّةِ مِنْ مِصْرٍ، وَاسْتَيْطَانَ مَجْمُوعَةً كَبِيرَةً مِنْ التُّجَّارِ الْاَجَانِبِ فِي سِنَارٍ، وَكَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ لَقَبُ "خَوَاجَاتٍ" (٦٠)، وَهُوَ مَا يَنْقُضُ رِوَايَةَ بَرُوسٍ عَنِ اِنْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي مَمْلَكَةِ سِنَارٍ بِدَاعِي مِوَاصَلَةِ التِّجَارَةِ.

وَعَقِبَ تَأْسِيسِ سُلْطَنَةِ الْفُونُجِ كَانَ الْمُحَارِبُونَ الشُّلُكُ - لِمُدَّةِ جِيلَيْنِ عَلَى الْاَقْلِ - يُشَكِّلُونَ قِوَامَ الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ لَهَا (٦١). وَفِي ظِلِّ الْحَرْبِ مَعَ الْحَبْشَةِ، كَانَ مَلِكُ الْفُونُجِ بِمَقْدُورِهِ اَلِاسْتِجَابَةَ لِلضُّغُوطِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَى الْمَمْلَكَةِ؛ اِمَّا بِتَقْلِيصِ حُجْمِ التِّجَارَةِ، وَطَرْدِ الْاَجَانِبِ الْحَاقِدِينَ عَلَى الْمَمْلَكَةِ، اَوْ السَّمَّاحِ لِبَعْضِ رِعَايَاهُ بِالْتَّمَتُّعِ بِالْفُرْصِ الْمَشَابِهَةِ، وَلَا يَتَوَفَّرُ فِي تَارِيخِ الْفُونُجِ حَالَاتٌ طَرْدَ كَبِيرَةً لِلتِّجَارَةِ، لَكِنَّ الْمَتَوَاتِرَ هُوَ الْخِيَارُ الْاَخِيرُ. وَتَمَثَّلَ تَزَايُدُ عَدَدِ التُّجَّارِ الْقَادِمِينَ مِنَ الْجَنُوبِ فِي مَمْلَكَةِ سِنَارٍ بِشَكْلِ خَاصٍّ خِلَالِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ (٦٢).

رَابِعًا - رِحْلَةُ بَرُوسٍ كَوْنِهَا مَصْدَرًا تَارِيخِيًّا: رُؤْيَةٌ فِي تَفْسِيرِ تَارِيخِ الْاَسْتِعْمَارِ الْاُورُوبِيِّ بِالْمَنْطِقَةِ:

شَمَلَتْ رِحَلَاتُ بَرُوسٍ نِقَاطَ اِرْتِكَازٍ مُهِمَّةٍ فِي عَالَمِ الْبَحْرِ الْاَحْمَرِ، وَحَوْضِ النَّيْلِ، وَاَوْضَحَتْ مِلَاحِظَاتُهُ رُبَّمَا دُونَ قَصْدِ - الْعِلَاقَاتِ الْمُتَشَابِكَةِ وَالْمُتَدَاخِلَةِ بَيْنَ

أَطْرَافَ هَذَا الْعَالَمِ. وَبِالْعُودَةِ لِلرَّوَاءِ عِدَّةَ قُرُونٍ نَجِدُ أَنَّ قُوَّةَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَدْ زَادَتْ مَعَ اتِّسَاعِ رُقْعَتِهَا، وَفِي الْعَامِ ١٧٧٢م فَتَحَ صَلاَحُ الدِّينِ بِلَادَ النُّوبَةِ ذَاتَ الْأَعْلِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ. وَكَانَ اسْتِيْلَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْقُدْسِ مَرَّةً أُخْرَى قَدْ لَفَّتْ انْتِبَاهَ الْقُوَى الْأُورُوبِيَّةِ، وَكَانَ السَّبَبُ الرَّئِيسُ لِلْحَمَلَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ، أَوْ بِالْأُخْرَى الْمُحَفِّزُ الْأَسَاسِيُّ الَّذِي تَوَارَتْ وَرَاءَهُ الْأَسْبَابُ الْاِسْتِعْمَارِيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ. وَشَارَكَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُغَامِرِينَ فِي الْحَمَلَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ، وَمِنْ بَيْنِهِمْ رَيْنُو دِي شَاتِيُونِ Renaut de Chatillon الَّذِي اسْتَوْلَى عَلَى مِينَاءِ الْعُقْبَةِ بَعْدَ جُهُودٍ مُتَوَاصِلَةٍ فِي فِلَسْطِينَ، وَأَعَدَّ أُسْطُولاً عَلَى نَفَقَتِهِ مِنْ أَجْلِ مُهَاجِمَةِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ مِنْ جِهَةِ السَّاحِلِ، وَجَابَ أُسْطُولُهُ الْبَحْرَ الْأَحْمَرَ، وَنَهَبَ كَثِيرًا مِنَ الْمَوَانِي الْمُهَمَّةِ بِهِ (٦٣).

وَبَعْدَ قُرَابَةِ سِتَّةِ قُرُونٍ كَانَ الْبَرِيطَانِيُّونَ عَلَى السَّاحِلِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْبَحْرِ الْأَحْمَرَ يَقُومُونَ بِتِجَارَةٍ كَبِيرَةٍ مُنْذُ مِائَاتِ السِّنِينَ مَعَ شَرِيفِ مَكَّةَ تَمَثَّلَتْ فِي جَلْبِ الْأَوَانِي مِنَ الْهِنْدِ إِلَى مِينَاءِ جَدَّةَ. وَهَكَذَا فَإِنَّ هَذِهِ التِّجَارَةَ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَى آفَاقٍ جَدِيدَةٍ يُمَكِّنُ أَنْ يُنْظَرَ لَهَا فِي ضَوْءِ مُلَاحَظَاتِ جِيمْسِ بُرُوسِ الَّتِي تَذَكَّرُ: "أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ تِسْعُ سَفُنٍ مِنَ الْهِنْدِ فِي مِينَاءِ جَدَّةَ فِي عَامِ ١٧٦٨م قُدِّرَتْ قِيمَةُ حُمُولَةِ بَعْضِهَا بِأَكْثَرِ مِنْ مِائَتَيْ أَلْفِ جِنِيهِ اسْتِرْلِينِي" بِالرَّغْمِ مِنْ حَقِيقَةِ أَنَّ تِجَارَةَ "الْخَلِيجِ" كَانَتْ آخِذَةً فِي التَّدَهُّورِ بِسَبَبِ جَشَعِ شَرِيفِ مَكَّةَ وَمَسْئُولِيهِ الَّذِينَ فَرَضُوا ضَرَائِبَ ثَقِيلَةً عَلَى التُّجَّارِ. وَمُورِسَتْ هَذِهِ التِّجَارَةُ بِمُبَادَرَةٍ مِنْ مَسْئُولِي شَرِكَةِ الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ فِي الْهِنْدِ، وَلَيْسَ وَفَقًا لِتَعْلِيمَاتِ رُؤَسَاءِ الشَّرِكَةِ فِي لَنْدَنَ. وَكَانَ الْمَسْئُولُونَ فِي الْهِنْدِ بِقِيَادَةِ حَاكِمِ الْبِنْجَالِ وَارِينِ هَاسْتِنْجِرِ Warren Hastings يُحَقِّقُونَ أَرْبَاحًا كَثِيرَةً مِنْ عِدَّةِ نَوَاحٍ مِنْ بَيْنِهَا إِقْرَاضُ الْفَوَائِضِ الْمَالِيَّةِ لِلشَّرَكَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ بِهَوَامِشِ رِبْحٍ بَاهِظَةٍ، وَاتَّخَذَتْ هَذِهِ التِّجَارَةُ اتِّجَاهَاتٍ جَدِيدَةً غَيْرَ أَنَّ مَسْئُولِي الشَّرِكَةِ وَاجَهُوا مُشْكَلَةَ الْحِفَاطِ عَلَى احْتِيَاطَاتٍ مَالِيَّةٍ كَبِيرَةٍ. وَلِهَذَا السَّبَبِ فَإِنَّ تِجَارَةَ الْبَحْرِ الْأَحْمَرَ كَانَتْ مُهَمَّةً لِهَوْلَاءِ الْمَسْئُولِينَ؛ وَلَمْ يَكُنْ لَدَى الْعَرَبِ وَالْأَتْرَاكِ مَا يَكْفِي لِبَيْعِهِ مُقَابِلِ السَّلْعِ الْهِنْدِيَّةِ الَّتِي كَانُوا مُضْطَرِّينَ لِشِرَائِهَا، وَهَكَذَا كَانَ هَاسْتِنْجِرُ وَزَمَلَاؤُهُ مُهْتَمِّينَ لِلغَايَةِ بِاسْتِمْرَارِ التِّجَارَةِ وَتَعْزِيزِهَا فِي الْبَحْرِ الْأَحْمَرَ، الَّتِي كَانَتْ تَوَاجِهَ إِعَاقَةَ الْأَعْمَالِ الْقَمْعِيَّةِ لِشَرِيفِ مَكَّةَ. وَكَتَبَ بُرُوسُ الَّذِي زَارَ جَدَّةَ فِي عَامِ

١٧٦٩م عن الإجراءات التخريبية التي منها إلزام التجار بتقديم هدايا، وأصبحت الوسيلة الوحيدة للوقاية من القمع هو أن تكون الهدية أكبر. وكتب اليس لورين Eyles Irwing أحد مسؤولي شركة الهند الشرقية أن شريف مكة تملكته روح الطمع، وسوء النية تجاه البريطانيين^(٦٤).

وفي نهاية عام ١٧٦٩م مات شريف مكة تاركاً مسألة خلافته مفتوحة أمام الاحتمالات جميعاً، وكان هناك مرشحان اثنان للمنصب، وهما عبد الله وابن عمه أحمد. وفي الصراع الدائر كانت اليد العليا لأحمد، بينما فرَّ عبد الله إلى القاهرة سعياً للحصول على دعم علي بك. ولقيت استغاثة عبد الله بعلي بك هوى لدى الأخير، وخطبه الطموحة لاحتلال الحجاز، والهيمنة على تجارة البحر الأحمر. وكان صديقه ومستشاره الحميم الفينيسي كارلو روزيتي Venetian Carlo Rosetti يشير له باستمرار بمزايا إعادة فتح البحر الأحمر أمام التجارة الهندية، ومن خلال الاستيلاء على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، والاستيلاء على جدة تحديداً؛ فإنه كان يمكن لعلي بك تحقيق أهدافه، وفي منتصف عام ١٧٧٠م عبر جيشان مملوكيان إلى الحجاز. وغزا الجيش الأكبر منهما بقيادة محمد بك أبو الذهب شبه الجزيرة عقب السويس والعقبة، بينما مرَّ الجيش الثاني الأقل حجماً بقيادة إسماعيل بك نحو ساحل الحجاز مباشرة، وفي غضون ستة أشهر تم الاستيلاء على مكة، وأصبح عبد الله شريفها، وأطلق على علي بك لقب سلطان، ومملك مصر وقائد البحرين، ولم تطل قوات علي بك طويلاً في الحجاز. وكما فعل أسلافه فإنه سرعان ما أدار عينيه نحو سوريا الخصبية، وأعد الجيش لغزوتها التالية. لكن حتى قبل احتلال علي بك للحجاز؛ فإن أنباء حكمه القوي في القاهرة، وتوجهه نحو تجارة البحر الأحمر كانت قد وصلت للتجار البريطانيين في جدة، واقتنعوا بعدها بفكرة جلب السلع للسويس بدلاً من جدة^(٦٥).

وفي الوقت نفسه مرت الباكوية المملوكية في مصر، التي تم قمعها لأكثر من قرنين ونصف القرن في مصر عقب الغزو العثماني لها، بحركة إحياء بقيادة الأمير علي بك (١٧٧٢-١٧٦٠م) وخلفائه. وقد قلل هؤلاء الأمراء من المماليك سلطة الوالي

العُثماني وَالحامِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُرْسِلُهَا الحُكُومَةُ المَرْكَزِيَّةُ، وَسَعَوْا لِلحُكْمِ الذَّاتِي إِنْ لَمْ يَكُنِ الِاسْتِقْلالُ عَنِ الإِمْبِرَاطُورِيَّةِ العُثمانيَّةِ. وَاتَّباعاً لِسِياسَةِ خَارِجِيَّةٍ قَائِمَةٍ عَلى مِصْرَ التَّارِيخِيَّةِ؛ فَإِنَّ القَادَةَ المَمالِيكَ نَظَرُوا لِلقُوَّةِ الأُورُوبِيَّةِ المُنْتَشِرَةِ عَلى سِواحِلِ الشَّامِ وَالبَحْرِ الأَحْمَرِ، وَاهْتَمُّوا مُجَدِّداً بِالتَّجَارَةِ فِي هَذِهِ الأَقالِيمِ. وَمِنْ بَيْنِ السِّياساتِ الخَارِجِيَّةِ الجَدِيدَةِ الَّتِي بَادَرَ بِهَا الحُكَّامُ المَمالِيكَ المُسْتَقِلُّونَ ذَاتِيًّا تَشْجِيعُ التَّجَارَةِ الأُورُوبِيَّةِ فِي السُّوَيْسِ، وَلِهَذَا الغَرَضِ وَقَعَ مُحَمَّدٌ بِكَ (١٧٧٥-١٧٧٢م) وَخَلِيفَتاهُ إِبراهِيمُ بِكَ، وَمَرادُ بِكَ مَعاهِداتِ تِجاريَّةٍ مَعَ المُمْتَلِينَ الأِنْجِلِيزِ وَالفَرَنسِيِّينَ^(٦٦). وَجَذَبَ هَذَا التَّشْجِيعُ مِنْ قَبْلِ الحُكَّامِ المَمالِيكَ لِتِجَارَةِ الهِنْدِ عِنْدَ السُّوَيْسِ اِهْتِمَامَ مِصْالِحِ تِجاريَّةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ التَّجَارِ الأِنْجِلِيزِ، وَالفَرَنسِيِّينَ، وَالبَنادِقَةَ^(٦٧) وَالمَجْرِيِّينَ، وَالعُثمانيِّينَ الَّذينَ قَامُوا لِاحْتِاقِ بِنِباءِ عَدَدِ مِنَ البُيُوتِ التَّجاريَّةِ، وَوَضَعُوا عَدَدًا مِنَ الأَلْيَاتِ التَّجاريَّةِ لِتَطْويرِ هَذَا الطَّرِيقِ الجَدِيدِ. لَكِنَّ الحُكُومَتَيْنِ الأِنْجِلِيزِيَّةِ وَالفَرَنسِيَّةِ لَمْ تَكُونَا بِالحَماسِ نَفْسِه قَلَقًا مِنَ المُشْكَلاتِ الَّتِي سَبَبَها الطَّرِيقُ مَعَ الحُكُومَةِ العُثمانيَّةِ^(٦٨). وَبِالرَّغْمِ مِنْ فَقْدِ الحُكُومَةِ العُثمانيَّةِ سَيطَرَتِها العَمَلِيَّةُ عَلى مِصْرَ لِصالِحِ المَمالِيكَ؛ إِلاَّ أَنَّها حَاولَتْ وَقَفَ تَطوُّرِ التَّجَارَةِ الجَدِيدَةِ بِتَجديدِ حَظَرِها القَدِيمِ عَلى وُجُودِ السُّفُنِ الأُورُوبِيَّةِ فِي البَحْرِ الأَحْمَرِ شَمالَ جَدَّةِ. وَفِي عامِ ١٧٧٤م، وَمَرَّةً أُخْرى فِي عامِ ١٧٧٧م أَصْدَرَتِ الحُكُومَةُ العُثمانيَّةُ فَرماناتِ قَويَّةِ اللَّهْجَةِ تَحْظُرُ مَرُورَ السُّفُنِ الأُورُوبِيَّةِ إِلى شَمالِ جَدَّةِ. وَأَمَرَتْ وَلائِها فِي القَاهِرَةِ وَجَدَّةَ بِالِاسْتِئْلاءِ عَلى حُمُولاتِ أَيَّةِ سَفنٍ أُورُوبِيَّةٍ تَذْهَبُ إِلى السُّوَيْسِ، وَسِجْنِ وَاسْتِرْقاَقِ أَطْغَمِ بَحارَةَ هَذِهِ السُّفُنِ^(٦٩).

وَفي هَذَا العالَمِ الَّذِي شَكَّلتِ التَّجَارَةُ فِيهِ عَمادَهُ؛ رَأى بَرُوسٌ مِنْ مَنظُورِ "اسْتِعْمارِيٍّ" بَحَثَ أَنَّ أَهلَ سِنارٍ قَدْ أَصَبَحُوا مُسْلِمِينَ مِنْ أَجْلِ التَّجَارَةِ مَعَ القَاهِرَةِ، كَمَا أَنَّ الإِسلامَ وَالحُكَّامَ المُسْلِمِينَ تَوَسَّعُوا جَنُوبًا بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ مِنْ أَجْلِ التَّجَارَةِ مَعَ سِنارٍ^(٧٠)، غَيْرَ أَنَّ رِوايَةَ الرِّحالَةِ رُوبِينِي الَّذِي مَرَّ بِسِنارٍ فِي القَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ تَوَكَّدَ أَنَّ الإِسلامَ أَصَبَحَ دِينًا حَقِيقِيًّا بِسِنارٍ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ واسِطَةٍ لِلتَّجَارَةِ؛ فَقَدِ اسْتَقْبَلَهُ المَلِكُ عِمارةً قائلًا: "وَأكْرَمَنِي إِكرامًا كَبِيرًا، كَمَا كانَ يُكْرَمُ أَحْفادُ الرُّسُولِ (الأَشْرافِ) الَّذينَ يَعِيشُونَ فِي أَرْضِ كُوشِ (سِنارٍ)... لَقَدْ أَحْبَبَنِي المَلِكُ، وَخَدَمَهُ جَمِيعًا، واحْتَرَمُونِي،

وَنظَرُوا إِلَيَّ كَأَنِّي مَلَكَ مُرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ..^(٧١)، مَعَ إِشَارَتِهِ الْوَاضِحَةِ إِلَى أَنَّ "حُكَّامَ الْفُونَجِ كَانُوا سُودًا وَمِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ"، وَهِيَ الْإِشَارَةُ الَّتِي تَدْعُمُهَا رِوَايَةُ بَرُوسَ حَوْلَ هَوِيَّةٍ وَأَصْلِ الْفُونَجِ^(٧٢). وَقَدْ أَوْلَى مُلُوكُ الْفُونَجِ اِهْتِمَامًا كَبِيرًا بِالْمُؤَسَّسَاتِ الدِّينِيَّةِ، وَمَنْحُوهَا أَوْقَافًا كَثِيرَةً لِنَيْلِ تَأْيِيدِ الْفُقَهَاءِ، وَتَوْفِيرِ الدَّعْمِ لِلتَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ مِنْ مَوَارِدِ الْمُؤَسَّسَةِ الدِّينِيَّةِ نَفْسِهَا. وَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ أَشَارَتْ وَثِيقَةٌ تَعُودُ لِمُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ إِلَى حُجَّةٍ مَنَحَ وَقْفِيَّةٍ لِبَعْضِ الْفُقَهَاءِ، وَصَاحِبِهَا هُوَ السُّلْطَانُ بَادِي الرَّابِعِ (١٧٢٤-١٧٦٢م) ابْنُ السُّلْطَانِ نَوَلٍ لِلْفَقِيهِ مَدْنِيِّ وَوَلَدِ مُحَمَّدٍ^(٧٣).

وَيَرَى الْبَعْضُ أَنَّ سِنَارَ تَحْدِيدًا هِيَ الَّتِي شَهِدَتْ التَّحَوُّلَ الْاِقْتِصَادِيَّ وَالْاجْتِمَاعِيَّ الْكَبِيرَ فِي السُّودَانِ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ دَوْلَةِ زُرَاعِيَّةٍ تَعْتَمِدُ كَلِيَّةً عَلَى الزَّرَاعَةِ إِلَى الْجُنُوحِ لِانْتِشَاطِ فَرْدِيَّةٍ تَقُومُ عَلَى الرَّأْسِمَالِيَّةِ التَّجَارِيَّةِ بِمَفْهُومِهَا الْإِسْلَامِيِّ، وَتَزِيدُ هَيْمَةَ الطَّبَقَةِ الْوَسْطَى الْمُرْتَكِزَةِ فِي الْمَنَاطِقِ الْحَضْرِيَّةِ بِحُكْمِ مُرُورِ الطَّرِيقِ التَّجَارِيَّةِ مِنَ السُّودَانِ الْغَرْبِيِّ إِلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ بِهَا^(٧٤).

وَكَانَتْ الضَّرَائِبُ الَّتِي يَتِمُّ جَمْعُهَا مِنَ الرَّعَاةِ فِي السَّلْطَنَةِ كَانَتْ عَلَى قَدَرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ لِلدَّوْلَةِ؛ لِأَنَّ فَائِضَ الثَّرْوَةِ مِنَ الْأَقَالِيمِ الْمَرْوِيَّةِ بِالْأَمْطَارِ كَانَ يَتَحَوَّلُ فِي شَكْلِ مَاشِيَّةٍ، وَهَكَذَا يُمْكِنُ نَقْلُ الْعَائِدَاتِ، وَتَسْتَهْمُ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ فِي رِفَاهِيَّةِ الْحَيَاةِ فِي مَدِينَةِ سِنَارٍ، وَحَتَّى فِي التَّجَارَةِ الْخَارِجِيَّةِ، وَالْمُبَادَلَاتِ مَعَ الْقَوَافِلِ الْعَابِرَةِ لِسِنَارٍ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْعَائِدَاتُ تَقْدَمُ لِلسُّلْطَانِ سَنَوِيًّا فِي احْتِفَالٍ كَبِيرٍ لِحِظِهِ بَرُوسَ خِلَالَ زِيَارَتِهِ لِلْجَزِيرَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ سِنَارٍ^(٧٥). وَقَدْ قَامَتْ تِجَارَةُ الْفُونَجِ عَلَى حَرَكَةِ الْقَوَافِلِ، وَكَانَتْ تَحْكُمُهَا الْاِتِّفَاقِيَّاتُ السِّيَاسِيَّةُ بَيْنَ السُّلْطَنَاتِ الْمَعْنِيَّةِ، سَوَاءً دَاخِلَ السَّلْطَنَةِ أَمْ خَارِجَهَا. وَكَانَتْ التَّجَارَةُ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْحُكَّامُ الْمَحَلِّيُّونَ أَوْ الْمَجْمُوعَاتُ التَّجَارِيَّةُ مَسْئُولَةٌ عَنِ الشَّطْرِ الْكَبِيرِ مِنْ تِجَارَةِ الْفُونَجِ؛ وَكَانَ دَوْرُ السُّلْطَانِ فِي التَّجَارَةِ يَقُومُ عَلَى مُرَاعَاةِ طُرُقِ التَّجَارَةِ الْبَعِيدَةِ مَعَ دَوْلٍ مِثْلِ مِصْرٍ. كَمَا شَكَلَتْ مَمْلَكَةُ الْفُونَجِ إِحْدَى الْمَنَاطِقِ الَّتِي بِهَا عَمَلَةٌ خَاصَّةٌ بِهَا فِي شَمَالِ شَرْقِ أُفْرِيْقِيَا خِلَالَ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ، وَكَانَ مِنْ أَشْهُرِ الْعُمَلَاتِ فِي سِنَارٍ وَفِي رِوَايَةِ بُوْرِكْهَارْتِ الْعَمَلَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِاسْمِ أَبُو مَدْفَعٍ، وَأَبُو عَمُوسٍ، إِلَى جَانِبِ الْعُمَلَاتِ الْمِصْرِيَّةِ، وَعَمَلَةُ مَارِيَا تَرِيْزَا الْإِثْيُوبِيَّةِ^(٧٦).

وكانت تجارة مملكة الفونج تنتقل بحرية تامة بين دارفور وسواكن، وكانت أنشطة هؤلاء التجار تحكمها الترتيبات السياسية التي يعقدها الحكام فيما بينهم سواء في المنطقة أو عبر البحر الأحمر ووصولاً إلى القاهرة مع ملاحظة أن التجارة لم تكن في شكل قوافل متواصلة دائماً، لكن كانت تتوقف في محطات يتغير معها القادمون على القافلة مما حجب من التجارة فعلياً^(٧٧).

وأكد الرحالة الأجانب الذين زاروا سنار خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على أهمية سواكن، التي استقلت نسبياً عن سيطرة العثمانيين؛ لتجارة سلطنة الفونج، وقوافل الحج القادمة من السودان الغربي عبر سنار إلى سواكن ومصوع، ثم إلى جدة، حيث كانت سواكن مركز التجارة لسلطنة الفونج في حقيقة الأمر. وكان تجار سواكن هم الأكثر ثراءً في المنطقة يليهم التجار في سنار. وجاء تجار أجانب من مصر وكردفان في المرتبة التالية، وتمتع تجار الشايقية بأكبر مجال جغرافي للحركة التجارية في المنطقة، وكانوا يصلون إلى سنار، ودارفور، ومصر، وسواكن. ويلاحظ بشكل عام أن أغلب تجارة مملكة الفونج كانت تتجه على محور شرقي- غربي من سواكن وصولاً إلى دارفور عبر سنار، أو محطات على النيل الأوسط، وكانت التجارة المصرية أكثر أهمية من حجمها وقيمتها؛ لأنها جلبت للعائلة المالكة الأسلحة النارية، والذخيرة، والسلع الفارهة، وهي سلع لم تكن متداولة كثيراً في السوق السوداني القادم من سواكن. وعد تجار سواكن المصريين منافسين لهم يقومون ببيع سلع مشابهة بأسعار أقل^(٧٨).

تبيين مما سبق عرضه عدة نتائج يمكن إيجازها على النحو التالي

- إن جيمس برُوس رصد صورة كاملة عن الأوضاع في المناطق التي زارها خلال رحلته، وسجل ملحوظات ومشاهدات غاية في الأهمية تحتاج إلى دراسات علمية كثيرة.
- أوضحت الدراسة أهم المحطات الواقعة على طرق الحج، التي وصفها برُوس وصفاً دقيقاً.

- أَوْضَحَ تَتَبُعُ عَمَلِ بَرُوسَ أَنَّ سُلْطَنَةَ سِنَارَ كَانَتْ تَعْتَمِدُ عَلَى التِّجَارَةِ كَوْنَهَا عِمَادًا لِقِاصِدَاتِهَا، وَأَنَّ تَرَاجُعَ التِّجَارَةِ لَمْ يَنْفِذْهُ سِوَى قَوَائِلِ الْحَجِّ الَّتِي ظَلَّتْ تَسِيرُ سَنَوِيًّا مَارَةً بِمَمْلَكَةِ الْفُؤُجِ لِتَصِلَ إِلَى سَوَاكِنَ، وَمِنْهَا لِلْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ.
- التَّوَسُّعُ التِّجَارِيُّ وَظُهُورُ الْأَجَانِبِ، أَوْ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ خَوَاجَاتٌ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ يَنْقُضُ رِوَايَةَ بَرُوسٍ عَنْ أَنَّ انْتِشَارَ الْإِسْلَامِ فِي مَمْلَكَةِ سِنَارَ كَانَ بِدَاعِي مَوَاصِلَةَ التِّجَارَةِ.
- أَوْضَحَتْ مَلْحُوظَاتُ بَرُوسٍ فِي كِتَابِهِ الْعِلَاقَاتِ الْمُتَشَابِكَةِ وَالْمُتَدَاخِلَةِ بَيْنَ أَطْرَافِ الْمَنْطِقَةِ مِنْذُ الْقَدَمِ.
- بِالرَّغْمِ مِنْ تَعَرُّضِ مَلْحُوظَاتِ بَرُوسٍ خِلَالَ رِحْلَتِهِ لِلتَّشْكِيكِ مِنْ قَبْلِ الْعُلَمَاءِ فِي لَنْدَنَ إِلَّا أَنَّ تَقَارِيرَ مَنْ أَعْقَبَهُ مِنَ الرَّحَالَةِ أَكَّدَتْ بَقَّةَ رِصْدِهِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ.
- قَدَّمَ الْبَحْثُ مَقَارِبَةً -وَأِنْ كَانَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى تَتَاوُلٍ مُوسَّعٍ- لِلإِسْهَامِ فِي تَفْسِيرِ تَارِيخِ اسْتِعْمَارِ الْمَنْطِقَةِ فِي ضَوْءِ عَمَلِ جِيمِسِ بَرُوسِ الَّذِي أَوْضَحَ لَنَا أَنَّ الْإِسْتِعْمَارَ لَمْ يَكُنْ وِلِيدَ لِحِظَةٍ تَارِيخِيَّةٍ بَعَيْنِهَا؛ بَلْ إِنَّهُ نَتِيجَةُ تَرَكَمَاتٍ وَأَعْمَالٍ أَسْهَمَتْ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ فِي خُضُوعِ الْمَنْطِقَةِ لِلإِسْتِعْمَارِ الْأُورُوبِيِّ أَوْضَحَهَا الْبَحْثُ فِي مَوَاضِعَ مُخْتَلَفَةٍ.

هَوَامِشُ الدِّرَاسَةِ

¹ رَاجِعْ بِالتَّفْصِيلِ عَنْ حَيَاةِ جِيمِسِ بَرُوسٍ حَتَّى وَفَاتِهِ وَأَتَارِهِ:

- Edward Ullendorff, James Bruce of Kinnaird, The Scottish Historical Review, Vol. 32, No. 114, Part 2 (Oct., 1953), pp. 128-143.
- Bredin, Miles, the Pale Abyssinian: the Life of James Bruce, African Explorer and Adventurer, Harper Press, 2001.
- Duncan Cumming, Seven Unpublished Letters of James Bruce of Kinnaird, The Geographical Journal, Vol. 137, No. 1 (Mar., 1971), pp.

² James Bruce, Encyclopedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/James-Bruce>

⁴ انْظُرِ الْخَرِيْطَةَ رَقْمَ (1)

⁵ V. Nersessian and Richard Pankhurst, the Visit of Ethiopia of Yohannes T'ovmacean, an Armenian Jeweller, in 1764-66, Journal of Ethiopian Studies, Vol. 15 (August 1982), p. 79.

⁶ Lapidus, Ira M. A History of Islamic Societies, Cambridge University Press, Cambridge, 2014, p. 478.

⁷ Bruce, James, Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772 and 1773, Edinburgh, 1790, Vol. I, p. 16.

⁸ Ibid, p. 17.

⁹ Ibid, p. 24

¹⁰ Ibid, p. 25

¹¹ Ibid, p. 30

¹² Ibid, pp. 39-40

¹³ Richard Pankhurst, The Medical Activities in Eighteenth Century Ethiopia of James Bruce the Explorer, *Medizinhistorisches Journal*, Bd. 17, H. 3 (1982), pp. 257-8.

¹⁴ Ibid, pp. 258-9.

^{١٥} اشْتَهَرَتْ سَوَاكِينُ كَوْنَهَا مَدِينَةً إِسْلَامِيَّةً قَبْلَ اسْتِيلَاءِ الْعُثْمَانِيِّينَ عَلَيْهَا، وَطَلَّتْ سَوَاكِينُ الْمِينَاءِ الْمُرْتَبِسَ لِلِ السُّودَانِ بَعْدَ فَتْحِهَا مِينَاءَ عَيْدَابَ فِي الشَّمَالِ فِي عَامِ ١٤٩٢. وَأَوَّلُ وَصْفٍ لِسَوَاكِينٍ قَدَّمَهُ أوروِيْبِيٌّ كَانَ عَمَّا قَدْ سَمِعَهُ دُونُ خَوَّانٍ دَا كَا سِيْتَرُو Don Juan Da Castro الَّذِي سَجَّلَ رَحْلَتَهُ مِنَ الْبُرْتُغَالِ فِي عَامِ ١٥٤٠، وَيَقُولُ: تَقَعُ الْمَدِينَةُ وَ سَطْرَ زَاوِيَةِ دَائِرِيَّةٍ فِي جَزِيرَةٍ مُسَطَّحَةٍ، شِبْهَ دَائِرِيَّةٍ بِشَكْلِ مِثَالِيٍّ، وَتَعْلُو فَوْقَ الْبَحْرِ قَلِيلًا. وَلَا يُوجَدُ مَوْطِيٌّ قَدَّمَ فِي هَذَا الْمَكَانِ؛ لَأَنَّهَا مَكْنَةٌ ظَهَتْ بِالْمَسَاوِلِ لِلْعَايَةِ، وَهَكَذَا فَإِنَّ الْجَزِيرَةَ بِأَكْمَلِهَا عِبَارَةً عَنِ مَدِينَةِ مُزْدَحْمَةٍ. وَلَا شَكَّ أَنَّ دِيْفِيدَ رُوْبِينِي، الرَّحَّالَةَ الْيَهُودِيَّ الْشَّهِيرَ الَّذِي قَامَ بِرَحْلَةٍ إِلَى السُّودَانِ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، قَدْ زَارَ سَوَاكِينَ، وَأَنَّهُ عَبَّرَهَا مِنْ جَدَّةٍ، وَاسْتَعْرَفَتْ رِحْلَتَهُ مِنْ حُدَّةٍ لِسَوَاكِينِ يَوْمًا وَاحِدًا، وَسَافَرَتْ قَافِلَةً رُوْبِينِي مِنْ سَوَاكِينِ إِلَى أَشَا Asha أو أَسَا Asa، وَرَبُّهَا تَرْتَةً ضَمِيْطٌ بِاللَّحْ سَاءَ El Hassa الشَّمَالِ بَرِيرٍ أَوْ عِنْدَ نَهَايَةِ طَرِيقِ الْقَوَائِلِ الْقَدِيمِ مِنْ سَوَاكِينِ إِلَى النَّيْلِ:

- Daniel Rhodes, The Nineteenth-Century Colonial Archaeology of Suakin, Sudan, *International Journal of Historical Archaeology*, Vol. 15, No. 1 (March 2011), pp.164-165.
- S. Hillelson, David Reubeni's Journey, *Sudan Notes and Records*, Vol. 18, No. 1 (1935), p.154.
- J. W. Crowfoot, Some Red Sea Ports in the Anglo-Egyptian Sudan, *The Geographical Journal*, Vol. 37, No. 5 (May, 1911), pp. 528.

¹⁶ Bruce, James, Travels, Vol. I, Op. Cit. p. 211.

¹⁷ Ibid, p. 275.

¹⁸ Bruce, James, Travels, Vol. I, Op. Cit. pp. 275-6

¹⁹ Ibid, p. 355.

²⁰ Ibid, p. 357.

²¹ Bruce, James, Vol. IV, p. 94.

^{٢٢} رَاجِعْ فِي صَعِيدِ مِصْرَ تَحْتَ حُكْمِ الْعُثْمَانِيِّينَ وَعِلَاقَاتِهِ بِالسُّودَانِ وَصُولًا إِلَى سِنَارٍ:

- Abul-Magd, Zeinab A. Empire and its discontents: Modernity and subaltern revolt in upper Egypt, 1700-1920, A Dissertation Submitted to the Faculty of the Graduate School of Arts and Sciences of Georgetown University in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy in History, Washington D.C. June 2008, pp. 64-104.

²³ Bruce, James, Vol. IV, pp. 143-144.

²⁴ F. Nigel Hepper, The Niger and the Nile: Botanical Exploration Around Two African Rivers, *Annals of the Missouri Botanical Garden*, Vol. 78, No. 1 (1991), p. 83.

²⁵ James Bruce, Travels to Discover the Source of the Nile (2nd Edition, Edinburgh, 1805), IV, pp. 368-372.

²⁶ Bruce, James, Vol. IV, Op. Cit. p. 329.

٢٧ والدافينة Daveina عرب يعيشون مستقرين في حيام، ويحملون عداوةً ظاهرةً لِسُكَّانِ الأقرى حيمعاً، ويغرون باستمرار على أجزاءٍ كبيرةٍ من عطبرة، وقد جرمتهم حكومة سنار لأنضمامهم لقوات الحبة شبيبة في السابق خلال مهاجمة لها لمملكة سنار. وصاروا مقرين منذ ذلك الحين للأحباش، وعاشوا في استقلالية، كما أنهم هددوا دائماً عاصمة إقليم عطبرة. لمزيد من التفاصيل راجع:

Bruce, James, Vol. IV, Op. Cit. p. 329.

²⁸ Ibid, p 330

²⁹ Ibid, p 333

³⁰ Bruce, James, Vol. IV, Op. Cit. p. 341.

³¹ Ibid, pp. 346-7.

³² Ibid, p352.

³³ Mercer, Patricia, Shilluk Trade and Politics from the Mid-Seventeenth Century to 1861, The Journal of African History, Vol. 12, No. 3 (1971), p. 411. ولمزيد من التفاصيل حول القرى والقبايل راجع مقدمة كتاب حمدنا الله مصطفى ح سن: الأحباش المصري ودوره. 1820-1848.

في الإدارة المصرية بالسودان 1820-1848.

³⁴ Bruce, James, Vol. IV, Op. Cit. p.362.

³⁵ Ibid, 430-431.

³⁶ Ibid, p433.

³⁷ Jay Spaulding, The Funj: A Reconsideration, The Journal of African History, Vol. 13, No. 1 (1972), p. 47.

³⁸ Jay Spaulding and Abd Al-Ghaffar M. Ahmad, the Sinnar King-List of the Sid Al-Qum Ahmad, 1772, Sudanic Africa, Vol. 13, Sudanic Africa: Texts and Sources 2 Fontes Historiae Africanae Bulletin of Information: Selected articles 1979-1987 (2002), p. 29.

³⁹ Ibid, pp. 29-30.

^{٤٠} الشاطر بصيلي عبد الحليل: معالم تاريخ السودان وادي النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي، مكتبة الشريف الأكاديمية، الخرطوم، ٢٠٠٩م، ٤٢-٥٠؛ يوسف فضل حسن: مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، سودانك المحدودة، الخرطوم- السودان، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٣م ص ٨٠، ٨١؛ عبد الله حسين: السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعث المصرية، مؤسسة هندراوي، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ٩٤، ٩٣.

⁴¹ Holt, P. M. Funj Origins: A Critique and New Evidence, the Journal of African History, Vol. 4, No. 1 (1963), p. 43.

^{٤٢} راجع ملاحظات أصيلة حول رحلة رويني، وأهمها أن رحلته كانت قاصرة على السودان استناداً إلى أن الأسماء والمصطلحات التي أطلقها بخصوص إثيوبيا كانت تعتمد على السمع وبعيدة عن الدقة:

- A. Z. Aešcoly, David Reubeni's Route in Africa: Abyssinia or Sudan? The Jewish Quarterly Review, New Series, Vol. 30, No. 2 (Oct., 1939), pp. 217-219.

^{٤٣} عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان، دار الثقافة، الخرطوم- السودان، الطبعة الأولى، ١٩٥٣م، ص ٣٢-٣٣، ٤٨-٥٠. نعيم شقيير: تاريخ السودان، ص ٩٧، ٩٨؛ مكّي شبيكة: السودان عبر القرون، دار الجيل، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م، ص ٦٢-٦٥.

- محمد سعيد القشاط: صحراء العرب الكبرى، دار الرواد للطباعة والنشر، طرابلس- ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ص ١٤٣.

- عون الشريف قاسم: موسوعة القبائل والأنساب في السودان، الجزء الرابع، أفروفرلف للطباعة، الخرطوم- السودان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص ١٨١٢-١٨١٣.

- يوسف فضل حسن: مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، ص ٥٧، ٦٢؛ عبد الله سالم محمد بازينة: انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء، دار الكتب الوطنية، بنغازي- ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص ٩٥.

٤٤ إبراهيم رَجَبٍ مَحْمُودٍ: أُنْسَابُ مُلُوكِ السُّودَانِ فِي الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ بَيْنَ الْإِدْعَاءِ وَالْحَقِيقَةِ، مَجَلَّةُ مَرْكَزِ الْخِدْمَةِ لِلْإِسْتِشَارَاتِ الْبَحْثِيَّةِ- كَلِيَّةُ الْآدَابِ- جَامِعَةُ الْمُتَوَفِّيَّةِ، عَدَدٌ خَاصٌّ- يَنَابِرُ ٢٠٢٢م، ص٢٨.

⁴⁵ Holt, P. M. Funj Origins, Op. Cit. p. 40.

^{٤٦} عَبْدُ الْمَجِيدِ عَابِدِينَ: تَارِيخُ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي السُّودَانِ، ص٥٢؛ الشَّاطِرُ بُصَيْلِي عَبْدُ الْجَلِيلِ: الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص٦٤، ٤٧؛ مَكِّي شَيْبَكَةَ: السُّودَانُ عَبْرَ الْقُرُونِ، ص٦٥؛ حَسَنُ أَحْمَدَ مَحْمُودٍ: الْإِسْلَامُ وَالثَّقَافَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي أُفْرِيْقِيَا، دَارُ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ، الْقَاهِرَةُ، ٢٠٠٩م، ص٢٦٦، ٢٦٧.

^{٤٧} إبراهيم رَجَبٍ مَحْمُودٍ: مرجع سابق، ص٢٨.

⁴⁸ Lapidus, Ira M. A History of Islamic Societies, Op. Cit. p. 479.

⁴⁹ Bruce, James, Vol. IV, Op. Cit. pp. 485-486.

⁵⁰ Ibid, p. 487.

⁵¹ Ibid, p. 486.

^{٥٢} حَمْدُنَا اللَّهُ مُصْطَفَى حَسَنٍ: التَّطَوُّرُ الْآتِي صَادِيٌّ وَالْحَاجَةُ حَمَائِي فِي السُّودَانِ ١٨٤١-١٨٨٥، دَارُ الْمَعَارِفِ، الطَّبَعَةُ الْأُولَى ١٩٨٥م، ص٢٢.

⁵³ Ibid, p. 506

⁵⁴ Ibid, p. 507.

⁵⁵ Jay Spaulding, The Government of Sinnar, The International Journal of African Historical Studies, Vol. 6, No. 1 (1973), p. 31.

- جون لويس بورك هارت: رحلات بورك هارت للنوبة وال سودان، ترجمة فؤاد اندراوس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٨.

⁵⁶ Jay Spaulding, Slavery, Land Tenure and Social Class in the Northern Turkish Sudan, The International Journal of African Historical Studies, Vol. 15, No. 1 (1982), p. 8.

⁵⁷ Heather J. Sharkey, Luxury, Status, and the Importance of Slavery in the Nineteenth- and Early-Twentieth-Century Northern Sudan, Northeast African Studies, New Series, Vol. 1, No. 2/3, Conference Proceedings of the 12th Annual Sudan Studies Association Conference: 15-17 April 1993. Michigan State University, East Lansing, Michigan (1994), p. 199.

⁵⁸ Mchugh, Neil, Holymen of the Blue Nile: Religious Leadership and the Genesis of An Arab Islamic Society in the Nilotic Sudan, 1500-1850, A Dissertation Submitted to the Graduate School in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree Doctor of Philosophy (Field of History), Evanston, Illinois, August 1986, p. 165.

⁵⁹ Lea, David, editor, A Political Chronology of Africa, Europa Publications Limited, London, 2001, p. 402.

⁶⁰ J.L. Spaulding, The Evolution of the Islamic Judiciary in Sinnar, The International Journal of African Historical Studies, Vol. 10, No. 3 (1977), p. 413.

⁶¹ Michael Twaddle, Towards an Early History of the East African Interior, History in Africa, Vol. 2 (1975), p. 159.

⁶² Lidwien Kapteijns and Jay Spaulding, Precolonial Trade between States in the Eastern Sudan, ca 1700 - ca 1900, African Economic History, No. 11 (1982), p. 39.

⁶³ J. F. E. Bloss, the Story of Suakin, Sudan Notes and Records, Vol. 19, No. 2 (1936), pp. 279-280.

⁶⁴ David Kimche, The Opening of the Red Sea to European Ships in the Late Eighteenth Century, Middle Eastern Studies, Vol. 8, No. 1 (Jan., 1972), p. 65-66.

⁶⁵ Ibid, p. 66.

⁶⁶ Daniel Crecelius, The Importance of Qusayr in the Late Eighteenth Century, Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. 24 (1987), pp. 53-4.

⁶⁷ كَانَ الْإِبْطَالِيُّونَ فِي مَوْجِعِ جُغْرَافِيٍّ فَرِيدٍ بِالنَّسْبَةِ لِدَوْلِ النَّبِيلِ؛ إِذْ تُعَدُّ شِبْهُ الْجَزِيرَةِ الْإِبْطَالِيَّةِ الْأَقْرَبَ زَسْنِيًّا لِإِهْدِيهِ الْمُنْطَقَةَ عَنْ بَعِيَّةِ دَوْلِ أُوْرُوْبَا الْكُبْرَى فِي الْفَنَرَةِ مَحَلِّ الدَّرَاسَةِ (الْبُرْتُغَالِ، وَإِسْبَانِيَا، وَفَرَزْ سَا) لِإِضَافَةِ إِلَى الْمَازِيَا أَوْ إِجْلَاسِيَا. وَكَانَ هَذَا الْقُرْبُ ذَا أَهْمِيَّةٍ خَاصَّةً لِإِثْيُوبِيَا بِاعْتِبَارِهَا قُوَّةً مَسِيحِيَّةً؛ فَقَدْ كَانَتْ رُوعًا مَرَّ كَرَّ الْمَسِيحِيَّةِ الْأُوْرُوْبِيَّةِ، وَكَانَتْ مَرَّ كَرَّ حَدْبٍ لِلْكَثِيرِينَ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ الْإِثْيُوبِيِّينَ الَّذِينَ شَعَرُوا بِأَنَّهُمْ حُزءٌ لَا يَتَجَرَّأُ مِنْ الْعَالَمِ الْمَسِيحِيِّ، خَاصَّةً الْإِثْيُوبِيِّينَ الَّذِينَ غَادَرُوا إِثْيُوبِيَا إِلَى الْقُدْسِ أَوْ الصَّحْرَاءِ الْمِصْرِيَّةِ أَوْ الْقَاهِرَةِ، وَرَبْمَا إِلَى قُبْرَصَ:

- Richard Pankhurst, Early Contacts between Italy and Ethiopia, and the Beginnings of Italian Scholarship on Ethiopia, Africa: Rivista trimestrale di studi e documentazione dell'Istituto italiano per l'Africa e l'Oriente, Anno 50, No. 3 (Settembre 1995), p. 399.

⁶⁸ Daniel Crecelius, The Importance of Qusayr, Op. Cit. p. 54

⁶⁹ Ibid.p55.

⁷⁰ M. C. Jedrej, The Southern Funj of the Sudan as a Frontier Society, 1820-1980, Comparative Studies in Society and History, Vol. 46, No. 4 (Oct., 2004), p. 713.

⁷¹ Spaulding, Jay Lioyd, Kings of Sun and Shadow: A History of the Abdallab Provinces og the Northern Sinnar Sultanate, 1500-1800 A.D. Submitted in partial Fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy, in the Faculty of Political Science, Columbia University, 1971, p. 98.

⁷² Binagi, Lioyd Arphaxad, the Genesis of the Modern Sudan: An Interpretive Study of the Rise of Afro-Arab Hegemony in the Nile Valley, A.D. 1260-1826, Submitted to the Temple University Graduate Board in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy, March 1981, pp. 199-200.

⁷³ Anders Bjørkelo and Ahmad Ibrahim Abu Shouk, A Sultanic Charter from Sinnar, Sudanic Africa, Vol. 3 (1992), p. 29.

- وَقَدْ حَظِيَتْ هَذِهِ الْوَيْثِيقَةُ وَأُخْرَى مُقَارَبَةً لَهَا بِدِرَاسَةِ أُخْرَى أَكْثَرَ تَدْقِيقًا وَهِيَ:

- Mchugh, Neil and O'Fahey, R. S. Land, Lords and Holy Men in Eighteenth-Century Sinnar: Two Documents, Sudanic Africa, Vol. 13, Sudanic Africa: TEXTS AND SOURCES 2. Fontes Historiae Africanae Bulletin of Information: Selected articles 1979-1987 (2002), pp. 49-67.

⁷⁴ Jay Spaulding and Stephanie Beswick, Sex, Bondage, and the Market: The Emergence of Prostitution in Northern Sudan, 1750-1950, Journal of the History of Sexuality, Vol. 5, No. 4 (Apr., 1995), p. 514.

⁷⁵ Jay Spaulding, Herdsmen and the State in Rainland Sinnār, The Journal of African History, Vol. 20, No. 3 (1979), p. 344.

⁷⁶ Spaulding, Jay Lioyd, Kings of Sun and Shadow, p. 161.

⁷⁷ Spaulding, Jay Lioyd, Kings of Sun and Shadow, Op. Cit. pp. 161-2.

⁷⁸ Ibid, pp.163- 164.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- قائمة المصادر الأجنبية:

1. Bredin, Miles, the Pale Abyssinian: The Life of James Bruce, African Explorer and Adventurer, Harper Press, 2001.
2. Bredin, Miles, the Pale Abyssinian: the Life of James Bruce, African Explorer and Adventurer, Harper Press, 2001.
3. Bruce, James, Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772 and 1773, Edinburgh, 1790.
4. Edward Ullendorff, James Bruce of Kinnaird, The Scottish Historical Review, Vol. 32, No. 114, Part 2 Oct., 1953.
5. Lapidus, Ira M. A History of Islamic Societies, Cambridge University Press, Cambridge, 2014.
6. Lapidus, Ira M. A History of Islamic Societies, Cambridge University Press, Cambridge, 2014.
7. Lea, David, editor, A Political Chronology of Africa, Europa Publications Limited, London, 2001.
8. Lea, David, editor, A Political Chronology of Africa, Europa Publications Limited, London, 2001.

ثانياً- المراجع العربية والمعربة:

١. جون لويس بوركهارت: رحلات بوركهارت للنوبة والسودان، ترجمة فؤاد اندراوس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨.
٢. حمدنا الله مصطفى حسن: التطور الاقتصادي والاجتماعي في السودان ١٨٤١-١٨٨٥، دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.
٣. حمدنا الله مصطفى حسن: الجيش المصري ودوره في الإدارة المصرية بالسودان ١٨٢٠-١٨٤٨.
٤. حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٩م.
٥. الشاطر بصلي عبد الجليل: معالم تاريخ السودان وادي النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي، مكتبة الشريف الأكاديمية، الخرطوم، ٢٠٠٩م.
٦. عبد الله حسين: السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٣م.
٧. عبد الله سالم محمد بازينة: انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء، دار الكتب الوطنية، بنغازي- ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
٨. عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان، دار الثقافة، الخرطوم- السودان، الطبعة الأولى، ١٩٥٣م.
٩. عون الشريف قاسم: موسوعة القبائل والأنساب في السودان، الجزء الرابع، أفروقرلف للطباعة، الخرطوم-السودان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

١٠. محمد سعيد القشاط: صحراء العرب الكبرى، دار الرواد للطباعة والنشر، طرابلس- ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

١١. مكي شبيكة: السودان عبر القرون، دار الجيل، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م.

- نعيم شفير: تاريخ السودان. ، تحقيق محمد ابراهيم ابوسليم، دار الجبل، بيروت ١٩٨١.

١٢. يوسف فضل حسن: مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، سودانك المحدودة، الخرطوم-السودان، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٣م .

ثالثاً- الدوريات العربية:

١- ابراهيم رجب محمود: أنساب ملوك السودان في العصر الإسلامي بين الادعاء والحقيقة، مجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية- كلية الآداب- جامعة المنوفية، عدد خاص يناير ٢٠٢٢م.

رابعاً- الدوريات الأجنبية:

1. Anders Bjørkelo and Ahmad Ibrahim Abu Shouk, A Sultanic Charter from Sinnar, Sudanic Africa, Vol. 3 (1992).
2. Daniel Crecelius, The Importance of Qusayr in the Late Eighteenth Century, Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. 24 (1987).
3. Daniel Rhodes, The Nineteenth-Century Colonial Archaeology of Suakin, Sudan, International Journal of Historical Archaeology, Vol. 15, No. 1 (March 2011).
4. David Kimche, The Opening of the Red Sea to European Ships in the Late Eighteenth Century, Middle Eastern Studies, Vol. 8, No. 1 (Jan., 1972).
5. Duncan Cumming, Seven Unpublished Letters of James Bruce of Kinnaird, The Geographical Journal, Vol. 137, No. 1 (Mar., 1971).
6. Edward Ullendorff, James Bruce of Kinnaird, The Scottish Historical Review, Vol. 32, No. 114, Part 2 (Oct., 1953).
7. Emergence of Prostitution in Northern Sudan, 1750-1950, Journal of the History of Sexuality, Vol. 5, No. 4 (Apr., 1995).
8. F. Nigel Hepper, The Niger and the Nile: Botanical Exploration Around Two African Rivers, Annals of the Missouri Botanical Garden, Vol. 78, No. 1 (1991).
9. Heather J. Sharkey, Luxury, Status, and the Importance of Slavery in the Nineteenth- and Early-Twentieth-Century Northern Sudan, Northeast African Studies, New Series, Vol. 1, No. 2/3, Conference Proceedings of the 12th Annual Sudan Studies Association Conference: 15-17 April 1993. Michigan State University, East Lansing, Michigan (1994).
10. Holt, P. M. Funj Origins: A Critique and New Evidence, the Journal of African History, Vol. 4, No. 1 (1963)..
11. J. F. E. Bloss, the Story of Suakin, Sudan Notes and Records, Vol. 19, No. 2 (1936).

12. J. W. Crowfoot, Some Red Sea Ports in the Anglo-Egyptian Sudan, The Geographical Journal, Vol. 37, No. 5 (May, 1911).
13. Jay L. Spaulding, The Evolution of the Islamic Judiciary in Sinnar, The International Journal of African Historical Studies, Vol. 10, No. 3 (1977).
14. Jay Spaulding and Abd Al-Ghaffar M. Ahmad, the Sinnar King-List of the Sid Al-Qum Ahmad, 1772, Sudanic Africa, Vol. 13, Sudanic Africa: Texts and Sources 2 Fontes Historiae Africanae Bulletin of Information: Selected articles 1979-1987 (2002).
15. Jay Spaulding and Stephanie Beswick, Sex, Bondage, and the Market: The Emergence of Prostitution in Northern Sudan, 1750-1950, Journal of the History of Sexuality, Vol. 5, No. 4 (Apr., 1995).
16. Jay Spaulding, Herdsmen and the State in Rainland Sinnar, The Journal of African History, Vol. 20, No. 3 (1979).
17. Jay Spaulding, Slavery, Land Tenure and Social Class in the Northern Turkish Sudan, The International Journal of African Historical Studies, Vol. 15, No. 1 (1982).
18. Jay Spaulding, The Funj: A Reconsideration, The Journal of African History, Vol. 13, No. 1 (1972).
19. Jay Spaulding, The Government of Sinnar, The International Journal of African Historical Studies, Vol. 6, No. 1 (1973).
20. Lidwien Kapteijns and Jay Spaulding, Precolonial Trade between States in the Eastern Sudan, ca 1700 - ca 1900, African Economic History, No. 11 (1982).
21. M. C. Jedrej, The Southern Funj of the Sudan as a Frontier Society, 1820-1980, Comparative Studies in Society and History, Vol. 46, No. 4 (Oct., 2004).
22. Mchugh, Neil and O'Fahey, R. S. Land, Lords and Holy Men in Eighteenth-Century Sinnar: Two Documents, Sudanic Africa, Vol. 13, Sudanic Africa: TEXTS AND SOURCES 2. Fontes Historiae Africanae Bulletin of Information: Selected articles 1979-1987 (2002).
23. Mercer, Patricia, Shilluk Trade and Politics from the Mid-Seventeenth Century to 1861, The Journal of African History, Vol. 12, No. 3 (1971).
24. Michael Twaddle, Towards an Early History of the East African Interior, History in Africa, Vol. 2 (1975).
25. Richard Pankhurst, Early Contacts between Italy and Ethiopia, and the Beginnings of Italian Scholarship on Ethiopia, Africa: Rivista trimestrale di studi e documentazione dell'Istituto italiano per l'Africa e l'Oriente, Anno 50, No. 3 (Settembre 1995).
26. Richard Pankhurst, The Medical Activities in Eighteenth Century Ethiopia of James Bruce the Explorer, Medizinhistorisches Journal, Bd. 17, H. 3 (1982).

- 27.S. Hillelson, David Reubeni's Journey, Sudan Notes and Records, Vol. 18, No. 1 (1935).
- 28.V. Nersessian and Richard Pankhurst, the Visit of Ethiopia of Yohannes T'ovmacean, an Armenian Jeweller, in 1764-66, Journal of Ethiopian Studies, Vol. 15 (August 1982).
29. V. Nersessian and Richard Pankhurst, the Visit of Ethiopia of Yohannes T'ovmacean, an Armenian Jeweller, in 1764-66, Journal of Ethiopian Studies, Vol. 15 (August 1982).
- 30.Z. Aešcoly, David Reubeni's Route in Africa: Abyssinia or Sudan? The Jewish Quarterly Review, New Series, Vol. 30, No. 2 (Oct., 1939).

خامساً- الرسائل الجامعية:

1. Abul-Magd, Zeinab A. Empire and its discontents: Modernity and subaltern revolt in upper Egypt, 1700-1920, A Dissertation Submitted to the Faculty of the Graduate School of Arts and Sciences of Georgetown University in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy in History, Washington D.C. June 2008.
2. Binagi, Loyd Arphaxad, the Genesis of the Modern Sudan: An Interpretive Study of the Rise of Afro-Arab Hegemony in the Nile Valley, A.D. 1260-1826, Submitted to the Temple University Graduate Board in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy, March 1981.
3. Jay, Spaulding, Loyd, Kings of Sun and Shadow: A History of the Abdallab Provinces og the Northern Sinnar Sultanate, 1500-1800 A.D. Submitted in partial Fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy, in the Faculty of Political Science, Columbia University, 1971.
4. Mchugh, Neil, Holymen of the Blue Nile: Religious Leadership and the Genesis of An Arab Islamic Society in the Nilotic Sudan, 1500-1850, A Dissertation Submitted to the Graduate School in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree Doctor of Philosophy (Field of History), Evanston, Illinois, August 1986.
5. Spaulding, Jay Loyd, Kings of Sun and Shadow: A History of the Abdallab Provinces og the Northern Sinnar Sultanate, 1500-1800 A.D. Submitted in partial Fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy, in the Faculty of Political Science, Columbia University, 1971.

سادساً- شبكة المعلومات الدولية:

1. James Bruce, Encyclopedia Britannica,
<https://www.britannica.com/biography/James-Bruce>